محمد عجاج الخطيب

السنة قبل التدوين



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الباب الرابع

متى دُوِّن الحديث ..؟

الفصل الأول : حول تدوين الحديث .

الفصل الثانى : مادون فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وفى صدر الإسلام .

الفصل الثالث : آراء فى التدوين .

الفصل الأول

حول تدوين الحديث ...

١ — الكتابة عند العرب قبيل الإسلام :

تدل الدراسات العلمية على أن العرب كانوا يعرفون الكتابة قبل الإسلام ، فكانوا يؤرخون أهم حوادثهم على الحجارة ، وقد أثبتت الأبحاث الأثرية ذلك بأدلة قاطعة ، تعود إلى القرن الثالث الميلادى ، وأكثر الآثار التى تحمل كتابات العرب كانت فى الأطراف الشمالية للجزيرة العربية [١] حيث كان الاتصال وثيقاً بالحضارة الفارسية والرومية ، ومما يُذكر أن عدى بن زيد العبادى (ـ ٣٥ ق هـ) حين نما وأيفع طرحه أبوه فى الكتاب حتى حذق العربية ، ثم دخل ديوان كسرى ، وهو أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى . [٢] وهذا يدل على وجود بعض الكتاتيب فى الجاهلية ، يتعلم فيها الصبيان الكتابة والشعر وأيام العرب ، ويشرف على هذه الكتاتيب معلمون ذوو مكانة رفيعة ، أمثال أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وبشر بن عبد الملك السكونى ، وأبى قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعمرو بن زرارة المسمى : (الكاتب) وغيرهم [٣] ، وقد استُقدِمَ أبو جفينة إلى المدينة ليعلم الكتابة [٤] ، (وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول ،

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٢٤ ـ ٣٢ وقد فصل القول فى هذا .
(٢) انظر الأغانى ص ١٠١ ـ ١٠٢ جـ ٢ .
(٣) انظر كتاب المحبر ص ٤٧٥ ، وقد ذكرهم تحت عنوان أشراف المعلمين .
(٤) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى ص ٤٢ جـ ٥ .

فجاء الإسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون .) [١]

وكان العرب يطلقون اسم (الكامل) على كل رجل يكتب ، ويحسن الرمى ، ويجيد السباحة [٢] ، ولكن كثيراً من الشعراء كانوا يفخرون بحفظهم ، وقوة ذاكرتهم ، بل إن بعضهم كان يخفى على الناس معرفته بالكتابة ، ويخشى أن يكشف أحدٌ أمره ، وإذا ما كشف أمر أحدهم قال : « اكتم علىّ فإنه عندنا عيب [٣] » .

بعد هذا نستبعد أن يكون قول بعض المؤرخين : (دخل الإسلام وبمكة بضعة عشر رجلا يكتب) [٤] ـ صورة دقيقة لحقيقة معرفة العرب بالكتابة قبيل الإسلام ، ونستبعد أن يكون هذا على وجه الإحصاء والضبط ، ومع هذا لايباح لنا أن نغالى فى معرفة العرب الكتابة ، وتذهب مذهب من ادعى كثرة الكتابة عند العرب فى الجاهلية ، وكثرة الكاتبين القارئين ، وقد حاول بعض المستشرقين وبعض الكاتبين العرب أن يدعموا رأيهم هذا بتأويل وصف الله تعالى للعرب (بالأميين) ـ فى قوله عز وجل : « هُوَ الّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يتلُو عَلَيهم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وإنْ كَانوا مِنْ قَبْلُ لِفِى ضَلالٍ مُبِينٍ » [٥] ـ بأنه (لا يعنى الأمية الكتابية

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٩ .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ص ١٣٦ قسم ٢ ج ٣ وعيون الأخبار ص ١٦٨ ج ٢ وفتوح البلدان ص ٤٥٩ .

(٣) الأغانى ص ١١٦ ج ١٦ هذا ما روى عن ذى الرمة .

(٤) انظر مثالا على هذا ما جاء فى قبول الأخبار ص ٦٤ ، وانظر عبارة المؤرخين التى يرددونها : (وكانت الكتابة فى العرب قليلة) ومثال هذا فى طبقات ابن سعد ص ٨٣ قسم ٢ ج ٣ وص ٧٧ قسم ٢ ج ٣ .

(٥) ٢ : الجمعة

ولا العلمية ، وإنما يعنى الأمية الدينية ، أى أنه لم يكن لهم من قبل القرآن الكريم كتاب دينى ، ومن هنا كانوا أميين دينياً ، ولم يكونوا مثل (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل .)[١] . وحَمْلُ هذا اللفظ على هذا المعنى من غير قرينة لامسوغ له ، لأنه يقتضى التفريق بين تفسير الأميين وهم العرب (جهلة الشريعة) وتفسير ماوصف به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمية ـ في قوله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ[٢] » بأنه الذى لايعرف القراءة والكتابة ، ولا داعى لهذا التفريق فى المعنى ، ولا مؤيد له فلا بد من حمل اللفظ على أحد المعنيين ، والأصل فيه عدم معرفة القراءة والكتابة[٣] ، على أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بين الأمية المعنية بما لايرقى إليه الشك ، فقد أخرج الشيخان وأصحاب السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لانَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ . الشهر هكذا . . . »[٤] .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٤٥ .

(٢) ١٥٧ : الأعراف .

(٣) لقد اختار الدكتور ناصر الدين الأسد تفسير (الأميين) بمعنى جهلة الشريعة ، أى الأمية الدينية لا الأمية المتعلقة بالقراءة والكتابة ، ودعم رأيه هنا بشواهد فصل فيها ، انظر ذلك فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص٤٥ . وتعرض الدكتور صبحى الصالح فى فى كتابه « علوم الحديث ومصطلحه » لهذا التفسير الذى اعتمد عليه المستشرقون فى زعمهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان كاتبا قارئا ، وأن وصفه بالأمية — كوصف العرب بها — لاينافى معرفة القراءة والكتابة . انظر كتابه الصفحة ٢ ـ ٤ وحواشيها ، وقد رد عليهم رداً جليلا .

(٤) وتتمة الحديث (وهكذا يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين) انظر فتح البارى ص٢٨ـ٢٩ ج ٥ وصحيح مسلم ص٧٦١ حديث ١٥ ج ٢ وقد روى من طرق كثيرة ، قال هذا صلى الله عليه وسلم بمناسبة رؤية هلال رمضان ، ورأى جمهور المحدثين على أن المراد بالأمة الأمة العربية آنذاك ، والمراد من الأمية ، أمية القراءة والكتابة ، وقد قيل العرب أميون لأن =

٢ — الكتابة فى العصر النبوى وصدر الإسلام:

مما لاشك فيه أن الكتابة انتشرت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم على نطاق أوسع مما كانت عليه فى الجاهلية ، فقد حث القرآن الكريم على التعلم ، وحض الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك أيضاً ، واقتضت طبيعة الرسالة أن يكثر المتعلمون ، القارئون ، الكاتبون ، فالوحى يحتاج إلى كُتّاب ، وأمور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق تحتاج إلى كُتّاب أيضاً ، وقد كثر الكاتبون بعد الإسلام فعلا ليسدوا حاجات الدولة الجديدة ، فكان للرسول كُتّابٌ للوحى بلغ عددهم أربعين كاتباً ، وكُتّاب للصدقة ، وكتاب للمداينات والمعاملات ، وكتاب للرسائل يكتبون باللغات المختلفة [1] . وإن ماذكره المؤرخون من أسماء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن على سبيل الحصر ، بل ذكروا من داوم على الكتابة بين يديه ، ويظهر هذا واضحاً فى قول المسعودى (إنما ذكرنا من أسماء كتّابة صلى الله عليه وسلم من ثبت على كتابته ، واتصلت أيامه فيها ، وطالت مدته ، وصحت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة ، إذ كان لايستحق بذلك أن يسمى كاتباً ، ويضاف إلى جملة كتابه [2]) .

= الكتابة كانت فيهم قليلة،قال تعالى « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » ، ولا يرد على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب لأن الكتابة كانت فيهم قليلة ونادرة آنذاك . والمراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضا الا اليسير . انظر تفصيل هذا فى فتح البارى ص ٢٨ — ٢٩ جـ ٥ .

(١) راجع للصباح للضوء فى كتاب النبي الأمى ورسله إلى ملوك الأرض من عرب وعجم لمحمد بن على بن حديد الأنصارى . مخطوط مكتبة الأوقاف بحلب ، تحت رقم (أ ٢٧٠) وقد فصل القول فى ذلك فى ص ١٦ — ٤٠ .

(٢) التنبية والاشرف ص ٢٤٦ .

وقد كثر الكاتبون بعد الهجرة عندما استقرت الدولة الإسلامية ، فكانت مساجد المدينة التسعة إلى جانب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] محط أنظار المسلمين ، يتعلمون فيها القرآن الكريم ، وتعاليم الإسلام ، والقراءة والكتابة ، وقد تبرع المسلمون الذين يعرفون الكتابة والقراءة بتعليم إخوانهم ، وأرجح أنه كان من أوائل هؤلاء المعلمين سعد بن الربيع الخزرجي أحد النقباء الأثني عشر [٢] ، وبشير بن سعد بن ثعلبة [٣] ، وأبان بن سعيد بن العاص [٤] ، وغيرهم رضوان الله عليهم .

وكان إلى جانب هذه المساجد كتاتيب يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة ، إلى جانب القرآن الكريم [٥] . ولا يفوتنا أن نذكر أثر غزوة (بدر) فى تعليم

---

(١) انظر مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ص ١٣١ .

(٢) المتوفى سنة « ٣ » هـ انظر طبقات ابن سعد ص ٧٧ و ١٤١ قسم ٢ جـ ٣ .

(٣) المتوفى سنة « ١٢ » هـ انظر طبقات ابن سعد ص ٨٣ قسم ٢ جـ ٣ وتهذيب التهذيب ص ٤٦٤ جـ ١ والاصابة ص ٦٣ جـ ١ .

(٤) انظر الاصابة ص ١٠ — ١١ جـ ١ والمصباح المضىء ص ١٦ وقد اختلف فى وفاة أبان بن سعيد ، فقيل توفى سنة « ١٣ هـ » وقيل سنة « ١٥ هـ » ، وقيل غير ذلك والصواب أنه عاش إلى خلافة عثمان ، وأنا أرجح هذا لأنه كان أحد الصحابة الذين نسخوا المصاحف مع زيد ابن ثابت فى عهد عثمان رضي الله عليهم جميعا ، انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ص ٢٢٥ — ٢٢٦ جـ ٣ وكتابنا « زيد بن ثابت الأنصارى » ص ٣٥ .

(٥) كتب جولد تسيهر مقالا هاما فى دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأولى عند المسلمين ، وقد حاول أن يثبت أن كتاب تعليم القرآن ومبادىء الدين الإسلامى قد أنشىء فى عهد مبكر ، وأنه يرجع إلى صدر الإسلام ، وقد دعم رأيه بالأسانيد الآتية :

ا — أرسلت أم سلمة إحدى زوجات الرسول « صلى الله عليه وسلم » مرة إلى معلم كتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها فى ندف الصوف وغزله .

ب — كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التى تقى الإنسان شر العين ، وقد أسندها إلى سعد ابن أبى وقاص الذى كان يعلمها أولاده ، ويكتبها لهم كما يفعل المدرس مع تلاميذه .

حـ — مر « ابن عمر » و « أبو أسيد » فى مناسبة ما بكتاب ، فلفتا إليهم أنظار التلاميذ .

=

صبيان المدينة ، حينما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسرى بدر بأن يفدى كل كاتب منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة [١] ، ولم يقتصر تعليم الكتابة والقراءة على الذكور فقط ، بل كانت الإناث تتعلمن هذا فى بيوتهن فقد روى أبو بكر بن سليمان بن أبى حَثْمة عن الشفاء بنت عبد الله أنها قالت : (دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عند حفصة ، فقال لى : « ألا تعلمينَ هذه رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كما علمتِيها الكتابة ؟ ») [٢]

ثم اتسع نطاق التعليم ، وانتشر فى الآفاق الإسلامية ، بانتشار الصحابة رضوان الله عليهم ، وكثرت حلقات العلم ، وانتظمت فى المساجد [٣] ، وأضحت بعض الحلقات تضم نيفا وألفا من طـــــلاب العلم [٤] ، وكثر

= د ـ كان اللوح المخصص للكتابة موجودا فى وقت مبكر جدا ، فلقد روى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات فى الحكمة ، ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة » انظر تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبى طبعة بيروت سنة ١٩٥٤ ص ٢٦ .

ونضيف إلى هذا ـ مما يؤكد وجود الكتاتيب ـ ما رواه عثمان بن عبيد الله ، قال : رأيت أبا هريرة يصفر لحيته ونحن فى الكتاب . انظر طبقات ابن سعد ص ٥٩ قسم ٢ ج ٤ . وقد تعلم زيد بن ثابت فى أحد هذه الكتاتيب . انظر مسند الإمام أحمد ص ٢٥٩ ج ٥ .

(١) انظر طبقات ابن سعد ص ١٤ قسم ١ ج ٢

(٢) سنن أبى داود ص ٣٣٧ ج ٢ . والنملة هى قروح تخرج فى الجنب . وفى الحديث عن أنس قال : « رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من العين والحمة والنملة . » والحمة ـ بضم الحاء وفتح الميم ـ هى السم انظر صحيح مسلم ص ١٧٢٥ حديث ٥٨ ج ٤ .

(٣) مما يذكر عن النشاط العلمى وانتظام الحلقات أن أبا الدرداء رضى الله عنه « ـ ٣٢هـ » كان إذا صلى الغداة فى جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه ، فكان يجعلهم عشرة عشرة ، وعلى كل عشرة عريفا ، ويقف هو فى المحراب يرمقهم ببصره ، فإذا غلط أحدهم ، رجع إلى عريفهم ، وإذا غلط عريفهم رجع إلى أبى الدرداء فسأله عن ذلك » انظر غاية النهاية فى طبقات القراء ص ٦٠٦ ج ١ ، وتهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ص ٦٩ ج ١ .

(٤) قال مسلم بن مشكم « قال لى أبو الدرداء : اعدد من يقرأ عندى القرآن ، فعددتهم بأمره ألفا وستمائة ونيفا ، وكان لكل عشرة منهم مقرىء ، وأبو الدرداء يكون عليهم قائما إذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبى الدرداء . » انظر غاية النهاية فى طبقات القراء ص ٦٠٧ ج ١ ونحوه فى تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ص ٦٩ ج ١ .

=

المعلمون [١] ، وانتشرت الكتاتيب فى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية ، وغصت بالصبيان ، وضاقت بهم حتى اضطر الضحاك بن مزاحم معلم الصبيان ومؤدبهم إلى أن يطوف على حمار ليشرف على طلاب مكتبه ، الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف صبى [٢] ، وكان لا يأخذ أجراً على عمله [٣] .

وقد ازدادت الحركة العلمية فى أواخر القرن الأول ، وظهرت الندوات التى تدل على آثار النهضة العلمية ، فقد كان (عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله ابن صفوان الجمحى قد اتخذ بيتاً ، فجعل فيه شطرنجات ، ونردات ، وقرقات [٤] ، ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفترا فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم [٥]) .

فإذا رأينا ـ بعد ذلك ـ أن الحديث الشريف لم يدون تدوينا رسمياً فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما دون القرآن الكريم ـ فلا بد لنا من البحث عن السبب الذى أدى إلى عدم تدوينه فى عصره صلى الله عليه وسلم .

ونحن فى بحثنا هذا لا يمكننا أن نستسلم لتلك الأسباب التقليدية التى اعتاد

= وقد بلغت حلقات العلم فى عهد عبد الملك بن مروان درجة عظيمة ، فقد رأى فى المسجد الحرام حلقات كثيرة لعطاء ولسعيد بن جبير ولميمون بن مهران ولمكحول ولغيرهم ، فأعجب بهم ، وحث أحياء قريش على المحافظة على العلم . انظر تفصيل هذا فى المحدث الفاصل ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(١) ذكر أبو على أحمد بن عمر بن رستة كثيرا من المعلمين فى هذا العصر ، انظر : الأعلاق النفيسة المجلد السابع صفحة ٢١٦ ـ ٢١٧ وقد ذكرهم تحت عنوان صناعات الأشراف . . . وانظر كتاب المحبر حيث ذكر كثيرا من المعلمين وبينهم بالتفصيل فى الصفحات : ٣٧٩ والصفحات ٤٧٥ ـ ٤٧٧ .

(٢) انظر معجم الأدباء طبعة مصر ص ١٦ ج ١٢ ، وقد توفى الضحاك بن مزاحم سنة « ١٠٥ هـ » .

(٣) انظر الأعلاق النفيسة ص ٢١٦

(٤) النردات : جمع نرد ، ما يعرف اليوم بالطاولة . وقرقات : جمع قرق وهى لعبة الصبيان .

(٥) الأغانى ص ٢٥٣ ج ٤

الكاتبون أن يعللوا بها عدم التدوين ، ولا نستطيع أن نوافقهم على ماقالوه من أن قلة التدوين فى عهده صلى الله عليه وسلم ، تعود قبل كل شىء إلى ندرة وسائل الكتابة ، وقلة الكتاب ، وسوء كتابتهم [1] ـ لايمكننا أن نسلم بهذا بعد أن رأينا نيفا وثلاثين كاتبا يتولون كتابة الوحى للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وغيرهم يتولون أموره الكتابية الأخرى ، ولا يمكننا أن نعتد بقلة الكتاب ، وعدم إتقانهم لها ، وفيهم المحسنون المتقنون أمثال زيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ولو قبلنا جدلا ما ادعوه من ندرة وسائل الكتابة وصعوبة تأمينها ، لكفى فى الرد عليهم أن المسلمين دونوا القرآن الكريم ولم يجدوا فى ذلك صعوبة ، فلو أرادوا أن يدونوا الحديث ماشقّ عليهم تحقيق تلك الوسائل ، كما لم يشق هذا على من كتب الحديث بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من أسباب أخرى ، وإنا لنرى تلك الأسباب من خلال الآثار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين ، وسنرى أن تدوين الحديث مر بمراحل منتظمة حققت حفظه ، وصانته من العبث ، وقد تضامنت الذاكرة والأقلام ، وكانا جنباً إلى جنب فى خدمة الحديث الشريف ، ونستعرض الآن تلك الآثار التى تلقى لنا بعض الضوء على حقيقة تدوين السنة .

* * *

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ، قال : (وكان غيره ـ ابن عمرو بن العاص ـ من الصحابة أميين لا يكتب منهم الا الواحد والاثنان وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجى » ص ٣٦٦ . إن هذا يتنافى مع ما بيناه من تعلم المسلمين الكتابة ، فتعميم ابن قتيبة هنا لا يستند إلى دليل . وانظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣ .

أولا: ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتابة.

ا — ماروى من كراهة الكتابة :

١ — روى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنّى ، وَمنْ كتبَ عنى غيرَ القرآنِ فليَمحُه [١] » وهذا الحديث أصح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

٢ — وقال أبو سعيد الخدرى : (جهدنا بالنبى صلى الله عليه وسلم أنْ يأذنَ لنا فى الكتابِ فأبى) وفى رواية عنه قال : (استأذَنا النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى الكتابةِ فلم يأذن لنا [٢]) .

٣ — روى عن أبى هريرة أنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث ، فقال : « ماهذا الذى تكتبون ؟ » . قلنا : أحاديث نسمعها منك . قال : « كتابٌ غير كتاب الله ! ؟ أتدرون ؟ ماضلَّ الأممُ قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتبِ مع كتابِ الله تعالى [٣] » .

ب — ماروى من إباحة الكتابة :

١ — قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أريد حفظه فنهتنى قريش ، وقالوا تكتب كل شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٢٩ ج ١٨ وجامع بيان العلم وفضله ص ٦٣ ج ١ .
(٢) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٥ ج ٤ . والالماع ص ٢٨ ونحوه فى تقييد العلم ص ٣٢ — ٣٣ .
(٣) تقييد العلم ص ٣٤ .

صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم فى الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : « اكتب فو الذى نفسى بيده ماخرجَ منهُ إلا حقٌ [1] » .

٢ — قال أبو هريرة رضى الله عنه : (مامن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب [2]) .

٣ — روى عن أبى هريرة أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يحفظه ، فيسأل أبا هريرة فيحدثه ، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « استعِنْ على حِفظِكَ بيمينك [3] » .

٤ — روى عن رافع بن خديج أنه قال : قلنا : يارسول الله ، إنا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها ؟ قال : « اكتبُوا ولا حرج [4] » .

٥ — روى عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قيدوا العلم بالكتاب [5] » .

---

(١) سنن الدرامى ص ١٢٥ ج ١ ونحوه فى ص ١٢٦ ج ١ ونحوه فى تقيد العلم بطرق كثيرة ص ٧٤ ـ ٨٣ . وفى جامع بيان العلم ص ٧١ ج ١ والالماع ص ٢٧ : ب .

(٢) فتح البارى ص ٢١٧ ج ١ .

(٣) تقييد العلم ص ٦٥ و ٦٦ وفى الجامع لأخلاق الراوى ص ٥٠ : آ وقد أخرجه الترمذى أيضاً من طريق أبى هريرة انظر توضيح الأفكار ص ٣٥٣ ج ٢ .

(٤) تقييد العلم ص ٧٢ ـ ٧٣ ، والمحدث الفاصل ص ٣ : ب ج ٤ مخطوطة دمشق وانظر توضيح الأفكار ص ٣٥٣ ج ٢ . وقد ضعف « السيد رشيد رضا » صاحب المنار هذا الحديث انظر مجلة المنار : ١٠/٧٦٣ وله رأى فى الأحاديث التى تسمح بالكتابة انظر ص ٧٦٥ و ص ٧٦٦ ج ١٠ من المجلة .

(٥) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٤٤ : آ ، وتقييد العلم ص ٦٩ ، وجامع =

٦ — روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره .[١]

٧ — روى عن أبى هريرة أنه لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة قام الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب فى الناس، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه ، فقال : يارسول الله ، اكتبوا لى ، فقال : اكتبوا له[٢] وقال أبو عبد الرحمن (عبد الله بن أحمد) : ليس يروى فى كتابة الحديث شئ أصح من هذا الحديث ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمرهم : قال : « اكتبوا لأبى شاه[٣] » .

٨ — روى عن ابن عباس أنه قال : لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه قال : « ايتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده » قال عمر : إن النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا . فاختلفوا ، وكثر اللغط . قال : « قوموا عنّى ، ولا ينبغى عندى التنازع[٤] » إن طلب الرسول هذا واضح فى أنه أراد أن يكتب شيئاً غير القرآن ، وما كان سيكتبه

= بيان العلم ص ٧٢ ج ١ ، وقد ضعف السيد محمد رشيد رضا هذا الحديث لأن فى سنده عبد الحميد بن سليمان وقد تكلم فيه الذهبى . كما ضعفه من طريق عبد الله بن المؤمل الذى قال فيه الإمام أحمد (أحاديثه مناكير) . انظر مجمع الزوائد ص ١٥٢ ج ١ . أقول : إلا أن هذا الحديث روى من طريق اسماعيل بن يحيى عن ابن أبى ذؤيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولا يطعن فيه تفرده به انظر تقييد العلم ص ٦٩ ، والسيد رشيد رضا ضعف الحديث من طريقيه الأولين فلا يطعن برواية اسماعيل بن يحيى هذه . انظر مجلة المنار ص٧٦٣ ــ ٧٦٦ ج١٠

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله : ص ٧١ ج ١ .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢٣٢ ج ١٢ وفتح البارى ص ٢١٧ ج ١ ، وجامع بيان العلم ص ٧٠ ج ١ وتقييد العلم ص ٨٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد ص ٢٣٥ ج ١٢ .

(٤) فتح البارى ص ٢١٨ ج ١ وصحيح الإمام مسلم ص ١٢٥٧ و ١٢٥٩ ج ٣ وفى طبقات ابن سعد ص ٣٦ و ٣٧ م ٢ .

هو من السنة، وإن عدم كتابته لمرضه لا ينسخ أنه قد همّ به، وكان فى آخر أيام حياته عليه الصلاة والسلام، فيُفهم من هذا إباحته عليه الصلاة والسلام الكتابة فى أوقات مختلفة، ولمواضيع كثيرة، فى مناسبات عدة، خاصة وعامة.

وإذا كانت الأخبار الدالة على إباحة الكتابة منها خاص كخبر أبى شاه، فإن منها أيضا ماهو عام لا سبيل إلى تخصيصه، كسماحه لعبد الله بن عمرو بالكتابة وللرجل الأنصارى الذى شكا سوء حفظه. ويمكن أن نستشهد فى هذا المجال بخبر أنس ورافع بن خديج وان تكلم فيهما، لأن طرقهما كثيرة يقوى بعضها بعضا، وللعلماء مع هذا آراء فى هذه الأخبار سأوجزها فيما يلى:

حاول العلماء أن يوفقوا بين ما ورد من نهى عن الكتابة وما ورد من إباحة لها، وترجع آراؤهم إلى إربعة أقوال:

الأول: قال بعضهم إن حديث أبى سعيد الخدرى موقوف عليه فلا يصلح للاحتجاج به. وروى هذا الرأى عن البخارى وغيره[1]، إلا أننا لا نسلم بهذا لأنه ثبت عند الامام مسلم، فهو صحيح، ويؤيد صحته ويعضده ما رويناه عن أبى سعيد رضى الله عنه: «استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم أن أكتب الحديث، فأبى أن يأذن لى[2]».

الثانى: أن النهى عن الكتابة إنما كان فى أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن، فلما كثر عدد المسلمين، وعرفوا القرآن معرفة رافعة للجهالة، وميزوه من الحديث — زال هذا الخوف عنهم، فنسخ الحكم الذى كان مترتبا

---

(١) انظر فتح البارى ص ٢١٨ ج١، وانظر الباعث الحثيث ص١٤٨، وتوضيح الأفكار ص ٣٥٣ ج ٢ وتدريب الراوى ص ٢٨٧ ومنهج ذوى النظر ص ١٤٢.

(٢) تقييد العلم ص ٣٢ — ٣٣.

عليه ، وصار الأمر إلى الجواز[1] . وفى هذا قال الرامهرمزى : (وحديث أبى سعيد « حرصنا أن يأذن لنا النبى صلى الله عليه وسلم فى الكتاب فأبى » أحسب[2] أنه كان محفوظاً فى أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن[3]) والقول بالنسخ أحد المعنيين اللذين فهمها ابن قتيبة من تلك الأخبار . فقال : (أحدهما : أن يكون من منسوخ السنة بالسنة كأنه نهى فى أول الأمر أن يكتب قوله ، ثم رأى بعد لما علم أن السنن تكثر وتفوت الحفظ أن تكتب وتقيد .)[4] ، ورأى هذا الرأى كثير من العلماء ، وذهب إليه العلامة المحقق الأستاذ أحمد محمد شاكر .[5] فبعد أن دعم رأيه بالأخبار التى تبيح الكتابة قال : (كل هذا يدل على أن حديث أبى سعيد — « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » — منسوخ ، وأنه كان فى أول الأمر ، حين خيف اشتغالهم عن القرآن ، وحين خيف اختلاط غير القرآن بالقرآن ، وحديث أبى شاه فى أواخر حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أخبار أبى هريرة — وهو متأخر الإسلام — أن عبد الله بن عمرو كان يكتب ، وأنه هو لم يكن يكتب : يدل على أن عبد الله كان يكتب بعد إسلام أبى هريرة ، ولو كان حديث أبى سعيد فى النهى متأخراً عن هذه الأحاديث فى الإذن والجواز لعُرِفَ ذلك عند الصحابة يقيناً صريحاً[6]) .

ويمكن أن نلحق هنا الرأى الذى يقول : إن النهى إنما كان عن كتابة

---

(١) انظر توضيح الأفكار ص٣٥٣ ـ ٣٥٤ ج٢ .
(٢) فى الأصل (فأحسبه) وما أثبتناه أصح لغة .
(٣) المحدث الفاصل ص ٧١ : آ
(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥ .
(٥) انظر الباعث الحثيث ص ١٤٨ .
(٦) المرجع السابق ص ١٤٩ .

الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة ، لأنهم كانوا يسمعون تأويل الآية ، فربما كتبوه معه ، فنهوا عن ذلك لخوف الاشتباه .[١]

الثالث : أن النهى فى حق من وثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ، والاذن فى حق من لا يوثق بحفظه كأبى شاه[٢] .

الرابع : أن يكون النهى عاما وخص بالسماح له من كان قارئا كاتبا مجيدا لا يخطىء فى كتابته ، ولا يخشى عليه الغلط ، كعبد الله بن عمرو الذى أمن عليه صلى الله عليه وسلم كل هذا ، فأذن له[٣] . وهذا هو المعنى الآخر الذى فهمه ابن قتيبه من تلك الأخبار .

ورأينا فى هذه الأخبار هو صحة ما روى عن أبى سعيد من النهى ، وصحة ما رود عن غيره من إباحة الكتابة ، فنحن لا نقول بوقف خبر أبى سعيد عليه . فالرأى الأول مردود ، ويمكن أن تكون جميع هذه الآراء الثلاثة صوابا ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن كتابة الحديث الشريف مع القرآن فى صحيفة واحدة خوف الالتباس ، وربما يكون نهيه عن كتابة الحديث على الصحف أول الإسلام حتى لا يشتغل المسلمون بالحديث عن القرآن الكريم ، وأراد أن يحفظ المسلمون القرآن فى صدورهم وعلى الألواح والصحف والعظام توكيدا لحفظه ، وترك الحديث للممارسة العملية، لأنهم كانوا يطبقونه : يرون الرسول فيقلدونه ، ويسمعون منه فيتبعونه ، وإلى جانب هذا سمح لمن لا يختلط عليه القرآن بالسنة أن يدون السنة كعبد الله بن عمرو ، وأباح لمن يصعب عليه الحفظ أن يستعين بيده حتى إذا حفظ المسلمون قرآنهم وميزوه عن الحديث جاء نسخ النهى بالاباحه

(١) انظر فتح المغيث ص ١٨ ج ٣ وانظر توضيح الافكار ص ٣٥٤ ج ٢ .
(٢) انظر فتح المغيث ص ١٨ ج ٣ ، وتوضيح الأفكار ص ٣٥٤ ج ٢ .
(٣) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

عامه ، وإن وجود علة من علل النهى السابقة لا ينفى وجود غيرها ولا يتعارض معه ، كما أن وجود علة النهى لا ينفى تخصيص هذا النهى بالمباح لبعض من لا تتحقق فيهم هذه العلة . فالنهى لم يكن عاما ، والاباحة لم تكن عامة فى أول الإسلام ، فحيثما تحققت علة النهى منعت الكتابة ، وحيثما زالت أبيحت الكتابة .

وأرى فى حديث أبى شاه وفى حديث ابن عباس : « ايتونى بكتاب . . » إذناً عاماً ، وإباحةً مطلقة للكتابة ، وعلى هذا لا تعارض بين جميع تلك الروايات فقد سهل التوفيق بينها وتبين وجه الصواب . وانتهى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإباحة الكتابة ، وسنرى فيما بعد بعض مادون فى عهده صلى الله عليه وسلم .

* * *

ثانيا — كتابة الحديث فى عصر الصحابة

مع ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من إباحة للكتابة ، ومع ما كتب فى عهده من الأحاديث على يدى من سمح لهم بالكتابة — نرى الصحابة يحجمون عن الكتابة ، ولا يقدمون عليها فى عهد الخلافة الراشدة ، حرصاً منهم على سلامة القرآن الكريم والسنة الشريفة، فنجد بينهم رضوان الله عليهم من كره كتابة السنة ، ومن أباحها ، ثم ما لبث الأمر أن كثر المجيزون للكتابة ، بل روى عن بعض من كره الكتابة أولا إباحته لها آخرا ، وذلك حين زالت علة الكراهة .

روى الحاكم بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : جمع أبى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان [1] خمسمائة حديث ، فبات

---

(١) فى الأصل (كانت) وما أثبتناه أصح لتستقيم العبارة .

ليلة يتقلب كثيراً . . . فلما أصبح قال : (أى بنية ، هلمى الأحاديث التى عندك ، فجئته بها ، فدعا بنار فحرقها[١]) .

وهذا عمر بن الخطاب يفكر فى جمع السنة ، ثم لايلبث أن يعدل عن ذلك : (عن عروة – بن الزبير – أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فأشاروا عليه بأن يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إنى كنت أريد أن أكتب السنن ، وإنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبداً[٢]) ، وفى رواية عن طريق مالك بن أنس أنَ عمر قال عند ما عدل عن كتابة السنة : « لا كتاب مع كتاب الله[٣] » .

وكان خوف عمر من إقدامه على كتابة السنة أن ينكب المسلمون على دراسة غير القرآن ويهملوا كتاب الله عز وجل[٤] ، ولذلك نرى عمر رضى الله عنه يمنع الناس من أن يتخذوا كتاباً مع كتاب الله ، وينكر إنكاراً شديداً على من نسخ كتاب (دانيال) ويضربه ويقول له : (انطلق فامحه . . ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنَّك عقوبة[٥]) ولهذا نراه يخطب فى الناس قائلا : (أيها الناس ، إنه قد بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب ، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها ، فلا يبقين

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٥ ج ١

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٦٤ ج ١ ، ونحوه فى تقييد العلم ص٥٠ ، وطبقات ابن سعد ص ٢٠٦ قسم ١ ج ٣ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٤ ج ١

(٤) انظر تقييد العلم ص ٥٠ .

(٥) تقييد العلم ص ٥٢ ونحوه مختصرا فى جامع بيان العلم ص ٤٢ ج ٢ ، وفى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٤٦ : ب .

أحد عنده كتاب إلا أتانى به ، فأرى فيه رأيى – قال – فظنوا أنه يريد أن[1] ينظر فيها ، ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف ، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار ثم قال : « أمنية كأمنية أهل الكتاب[2] » كما أنه كتب إلى الأمصار (من كان عنده منها شىء فليمحه[3]) .

كل هذا يدل على خشية عمر من أن يهمل كتاب الله أو أن يضاهى به كتاب غيره ، ونحن نرى عمر نفسه يأبى أن يبقى رأيه مكتوباً ويأبى إلا أن يمحوه ، فعند ما طعن استدعى طبيباً ، فعرف دنو أجله ، فنادى ابنه قائلا : « ياعبد الله ابن عمر ، ناولنى الكتف، فلو أراد الله أن يمضى مافيه أمضاه ، فقال له ابن عمر : أنا أكفيك محوها ، فقال : لا والله ، لايمحوها أحد غيرى » ، فمحاها عمر بيده وكان فيها فريضة الجد[4] .

ونرى عمر نفسه حين يأمن حفظ القرآن ، يكتب بشىء من السنة إلى بعض عماله وأصحابه (عن أبى عثمان « النهدى » قال : كنا مع عتبة بن فرقد ، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما كتب إليه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايلبس الحرير فى الدنيا إلا من ليس له فى الآخرة منه شىء إلا هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى . قال أبو عثمان: فرأيت أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة[5]) .

وروى عن عبد الله بن مسعود كراهيته لكتابة الحديث الشريف : (عن

---

(١) زدنا (أن) على الأصل لتستقيم العبارة .
(٢) تقييد العلم ص ٥٢ ، رواه محمد بن القاسم .
(٣) تقييد العلم ص٥٣ وجامع بيان العلم وفضله ص ٦٥ جـ ١ .
(٤) طبقات ابن سعد ص ٢٤٧ قسم ٢ جـ ٣ .
(٥) مسند الإمام أحمد ص ٢٦١ جـ ١ .

عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال : جاء علقمة بكتاب من مكة أو اليمن ، صحيفة فيها أحاديث فى أهل البيت : بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستاذنا على عبد الله ، فدخلنا عليه ، قال : فدفعنا إليه الصحيفة ، قال : فدعا الجارية ، ثم دعا بطست فيه ماء ، فقلنا له يا أبا عبد الرحمن ، انظر فيها ، فإن فيها أحاديث حسانا . قال : فجعل يميثها [1] فيها ويقول : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ » ، القلوب أوعية ، فاشغلوها بالقرآن ، ولا تشغلوها بما سواه . [2]) .

إلا أن هناك رواية تنص على أن ما فى الصحيفة كان من كلام أبى الدرداء وقصصه ، [3] وفى رواية قال أحد الرواة : (يُرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب ، فلهذا كره عبد الله النظر فيها [4]) ولا يمكننا أن نجزم بأن ما فى تلك الصحيفه كان من القصص أو مما أخذ عن أهل الكتاب ، لأنه ثبت عن الأسود بن هلال أنه قال : (أتى عبد الله بصحيفة فيها حديث ، فدعا بماء فمحاها ، ثم غسلها ، ثم أمر بها فأحرقت ، ثم قال : أُذَكِّرُ الله رجلا يعلمها عند أحد إلا أعلمنى به ، والله لو أعلم أنها بدير هند لبلغتها ، بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم حين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون [5] .) ، إن تصرف ابن مسعود يدل على أنه خشي أن يشتغل الناس بكتابة السنة ويدعوا القرآن ، أو

---

(١) ماثه : مرسه ، أى فركه ليذوب فى الماء وتتفرق أجزاؤه .

(٢) تقييد العلم ص ٥٤ وورد عنه النهى عن كتابة ماسوى القرآن عندما علم أن بعضهم يكتب كلامه انظر سنن الدارمى ص ١٢٥ ج ١ والآية هى : ٣ يوسف .

(٣) انظر تقييد العلم ص ٥٤ — ٥٥ .

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٦ ج ١ ونحو هذا فى سنن الدارمى ص ١٢٤ ج ١ .

(٥) المرجع السابق ص ٦٥ ج ١ ، ونحوه فى سنن الدارمى وفيه لو أنها « بدار الهندارية » يعنى — مكانا بعيدا بالكوفة — إلا أتيته ولو مشيا ص ١٢٤ ج ١ .

أن يشتغلوا بغير القرآن الكريم ، ونراه يكتب بعض السنة بيده حين زالت علة المنع ، فعن مسعر عن معن قال : (أخرج إلىّ عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف لى أنه خط أبيه بيده[١] .)

وهذا على رضى الله عنه يخطب فى الناس قائلا : (أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم[٢] .)

وأبى زيد بن ثابت أن يكتب عنه مروان بن الحكم[٣] وقال : (لعل كل شىء حدثتكم به ليس كما حدثتكم[٤]) وفى رواية قال : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا ألا نكتب شيئا من حديثه)[٥] .

وكذلك أبى أبو هريرة أن يكتب عنه كاتب مروان بن الحكم .[٦] وكان أحيانا يقول : إن أبا هريرة لايكتم ولايكتب[٧] ، وفى رواية (نحن لانكتب ولا نكتِب[٨]) .

وقال ابن عباس : (إنا لا نكتب العلم ولا نُكتِبه[٩]) ، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان ينهى عن كتابة العلم ، وقال :

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ جـ ١ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٣ جـ ١ .
(٣) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٦٣ جـ ١ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٥ جـ ١ .
(٥) تقييد العلم ص ٣٥ .
(٦) انظر تقييد العلم ص ٤١ والاصابة ص ٢٠٢ جـ ٧ .
(٧) انظر طبقات ابن سعد ص ١١٩ قسم ٢ جـ ٢ ونحوه فى تقييد العلم ص ٤٢ .
(٨) جامع بيان العلم ص ٦٦ جـ ١ وقارن بسنن الدارمى ص ١٢٢ جـ ١ .
(٩) جامع بيان العلم ص ٦٥ جـ ١ ونحوه فى تقييد العلم ص ٤٢ .

(إنما ضل من كان قبلكم بالكتب [1]) .

وقد تمسك أبو سعيد الخدرى بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه فى النهى عن كتابة غير القرآن . وأبى أن يُكْتِبَ أبا نضرة حين قال له هذا : ألا تكتبنا فإنا لا نحفظ ؟ فقال أبو سعيد : لا إنا لن نكتبكم ، ولن نجعله قرآنا ، ولكن احفظوا عنا كما حفظنا نحن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2].

ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه كان يكره كتابة الحديث ، روى عن سعيد بن جبير أنه قال : (كنا نختلف فى أشياء فنكتبها فى كتاب ، ثم أتيت بها ابن عمر أسأله عنها خفياً [3] ، فلو علم بها كانت الفيصل بينى وبينه [4]) .

وكره أبو موسى أن يكتب ابنه عنه مخافة أن يزيد أو ينقص ، ومحا ما كتبه بالماء [5] وفى رواية قال : (احفظوا عنا كما حفظنا [6]) ، وفى رواية عنه أنه قال : (إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا واتبعوه . وتركوا التوراة) [7] .

هؤلاء معظم الذين كرهوا كتابة الحديث فى الصدر الأول ، حاولت أن

---

(١) جامع بيان العلم ص ٦٥ جـ ١ ، وتقييد العلم ص ٤٣ .

(٢) سنن الدارمى ص ١٢٢ جـ١ ، وانظر تقييد العلم فيه روايات مختلفة عنه ص ٣٦ - ٣٨ وكذلك فى جامع بيان العلم وفضله ص ٦٤ جـ ١ ، وفى رواية عن أبى سعيد قال : « أتريدون أن تجعلوها مصاحف ، إن نبيكم صلى الله عليه وسلم كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ » انظر جامع بيان العلم ص ٦٤ جـ ١ وانظر كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩١ .

(٣) يريد خفية . أى ينظر إلى الكتاب من غير أن يشعر ابن عمر بذلك .

(٤) جامع بيان العلم ص ٦٦ جـ١ وتقييد العلم ص ٤٤ .

(٥) انظر المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٦ جـ ٤ وقارن بكتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣ وسنن الدارمى ص ١٢٢ جـ١ .

(٦) جامع بيان العلم ص ٦٦ جـ ١ .

(٧) تقييد العلم ص ٥٦ .

أثبت رأى كل منهم إلى جانب وجهة نظره فيما ذهب إليه من المنع والكراهة ، لأتمكن من استنتاج أسباب هذه الكراهة ، فوجدت كما قال الخطيب البغدادى : (أن كراهة الكتاب فى الصدر الأول إنما هى لئلا يضاهى بكتاب الله تعالى غيره ، أو يُشْتَغَل عن القرآن بسواه ؛ ونُهِى عن الكُتُب القديمةِ أن تتخذ ، لأنه لا يعرف حقها من باطلها ، وصحيحها من فاسدها مع أن القرآن كفى منها ، وصار مهيمناً عليها ، ونُهِى عن كَتْبِ العلم فى صدر الإسلام وجدته ، لقلة الفقهاء فى ذلك الوقت ، والمميزين بين الوحى وغيره ، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين ، ولا جالسوا العلماء العارفين ، فلم يُؤمن أن يُلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن ، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن[1]) ، أضف إلى هذا ورع الصحابة وخشيتهم من أن يكون ما يملونه أو يقيدونه غير ما سمعوه من الرسول عليه الصلاة والسلام .

من أجل هذا أولى الصحابة رضوان الله عليهم كتاب الله عز وجل فى هذه الحقبة عناية الحفظ فى الصحف والمصاحف وفى الصدور ، وجمعوه فى عهد الصديق ، ونسخوه فى عهد عثمان ، وبعثوا به إلى الآفاق ، ليضمنوا حفظ المصدر التشريعى الأول من أن تشوبه أية شائبة ، ثم حافظوا على السنة بدراستها ومذاكرتها وكتابتها أحيانا عند زوال مانع الكراهة ، وقد ثبت عن كثير من الصحابة الحثُّ على كتابة الحديث ، واجازة تدوينه .

ولا نشك فى هذه الأخبار كما شك غيرنا ، لأننا لا نرى فيها ذلك التعارض الذى تصوره بعض المستشرقين[2] ، حتى استجازوا لأنفسهم أن يحكموا على

---

(١) تقييد العلم ص ٥٧

(٢) سنتكلم بعد قليل عن رأى جولد تسيهر فى هذه الأخبار .

بعضها بالوضع والاختلاق ، وسنوجز فيما يلي بعض ما روى عن الصحابة من إجازة تقييد الحديث ، ليتبين صحة ما ذهبنا إليه .

وقبل أن أتناول هذه الأخبار لا بد لى من أن أقلب النظر فيما روى عن محاولة عمر رضى الله عنه جمع السنة وتدوينها ، كما جمع القرآن الكريم ، ثم عدوله عن ذلك خوفاً من أن يلتبس الكتاب بالسنة ، وخشية ألا يميز المسلمون الجدد بينهما . أقول : إن محاولته هذه تدل على اقتناعه بجواز كتابة الحديث الشريف ، وهذا ما انتهى به أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النهى عن الكتابة ، ولو شك عمر رضى الله عنه فى الجواز — ماهم بأن يفعل مامنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كرهه ، فإحجام الفاروق لم يكن لكراهة الكتابة ، بل لمانع يقتضى أن يتريث فى التدوين والجمع لمصلحة أخطر وأعظم ، ولذلك رأيناه يكتب بنفسه لمن يأمن عليه اللبس ويثق به ، وربما سمح عمر رضى الله عنه بالكتابة بعد أن رأى حفظ الأمة لكتاب الله تعالى بجمعه فى المصحف الشريف ، ويقوى هذا مايروى عن عمرو بن أبى سفيان من أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : (قيدوا العلم بالكتاب [1]) .

ثم إن بعض الصحابة أنفسهم قد أجاز الكتابة ، وكتب بعضهم بيده ، وتغير رأى من عرف منهم النهى عن كتابة الحديث حينما زالت أسباب المنع ، وخاصة بعد أن جمع القرآن فى المصاحف وأرسل إلى الآفاق .

ولا ينقض هذا الرأى الذى ذهبنا إليه — ماروى عن أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق كتب له فرائض الصدقة التى سنها رسول الله صلى الله عليه

---

(١) تقييد العلم ص ٨٨ ، وجامع بيان العلم ص ٧٢ ج ١ . ووجد ابن عمر فى قائم سيف أبيه صحيفة . انظر الكفاية ص ٣٥٤ ، وتوجيه النظر ص ٣٤٨ .

وسلم [١] بأن هذا كان قبل نسخ المصاحف ، لأننا لم نجعل الخشية من التباس الكتاب بالسنة السبب الوحيد لمنع الكتابة ، بل هناك أسباب أخرى قد ذكرتها فيما سبق ، ثم إن أنسا رضى الله عنه ممن لايلتبس عليه ذلك ، لأنه خدم رسول الله عليه الصلاة والسلام وعرفه وتلقى عنه عشر سنوات ، وعلى هذا نقول : إنه ثبت عن أبى بكر كتابة شىء من السنة وكذلك ثبت عن الفاروق مثل ذلك [٢] .

وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : (ماكنا نكتب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الإستخارة والتشهد [٣]) فهذا دليل على كتابة الصحابة غير القرآن الكريم فى عهده صلى الله عليه وسلم ، وعلى عدم كراهة ابن مسعود للكتابة ، وقد روينا خبر الكتاب الذى كان عند ابنه بخط يده [٤] .

وروى عن على رضى الله عنه أنه كان يحض على طلب العلم وكتابته ، فقد قال : (من يشترى منى علماً بدرهم ؟ قال أبو خيثمة : يقول : يشترى صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم) [٥] ، وخبر صحيفة على رضى الله عنه مشهور ، وقد كانت معلقة فى سيفه ، فيها أسنان الإبل وشىء من الجراحات [٦] . . .

وهـذا الحسن بن على رضى الله عنهما يقول لبنيه وبنى أخيه : (تعلموا تعلموا ، فإنكم صغار قوم اليوم ، تكونون كبارهم غداً ، فمن لم يحفظ منكم

---

(١) انظر تقييد العلم ص ٨٧ ؛ وفى مسند الإمام أحمد أن أبا بكر كتب لهم (إن هذه فرائض الصدقة التى فرض رسول الله) انظر ص ١٨٣ جـ ١ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ص ٢٦١ جـ ١ والكفاية ص ٣٣٦ .

(٣) مصنف ابن أبى شيبة ص ١١٥ : ب ، جـ ١ .

(٤) انظر جامع بيان العلم ص ٧٢ جـ ١ .

(٥) العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣ : ب وتقييد العلم ص ٩٠ .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد ص ٤٥ و ١٢٢ جـ ٢ ، وغيرها وتقييد العلم ص ٨٨ ــ ٩٩ وجامع بيان العلم ص ٧١ جـ ١ وفتح البارى ص ٨٣ جـ ٧ .

فليكتب[١]) ، وفى رواية : (فليكتبه ، وليضعه فى بيته[٢]) .

وهذه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تقول لابن أختها عروة بن الزبير : (يابنى ، بلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه ، فقال لها : أسمعه منك على شىء ، ثم أعود فأسمعه على غيره ، فقالت : هل تسمع فى المعنى خلافا ؟ قال : لا . قالت لا بأس بذلك[٣]) ، فلو كرهت عائشة رضوان الله عليها الكتابة لمنعته ونهته ، ولكنه لم يحدث شىء من هذا ، بل لم تر بأسا بفعله.

وهذا أبو هريرة رضى الله عنه يسمح لبشير بن نهيك أن يكتب عنه ، ويجيزه بالرواية عنه[٤] وفى رواية يقول بشير : (أتيت أبا هريرة بكتابى الذى كتبته ، فقرأته عليه فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال : نعم[٥]) ، وروى عمرو بن أمية الضمرى أنه رأى كتبا كثيرة عند أبى هريرة[٦] .

وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى المغيرة بن شعبة : (اكتب إلى بشىء سمعته من رسول الله صلى عليه وسلم ، فكتب المغيرة إليه : أنه كان ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال[٧]) .

---

(١) الكفاية ص ٢٢٩ .

(٢) تقييد العلم ص ٩١ .

(٣) الكفاية ص ٢٠٥ .

(٤) انظر العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣ : ب والمحدث الفاصل ص ١٢٨ .

(٥) طبقات ابن سعد ص١٦٢ جـ ٧ وجامع بيان العلم ص ٧٢ جـ ١ ، والعلم لزهيرص١٩٣ والكفاية ص ٢٥٥ و ٢٨٣ .

(٦) انظر جامع بيان العلم ص ٧٤ جـ ١ ، وفتح البارى ص ٢١٧ جـ ١ كما أنه أملى بعض أحاديثه على همام بن منبه وسنتعرض لذلك .

(٧) معرفة علوم الحديث ص ١٠٠ واختصر الحاكم الخبر وتجد تفصيل ما كتبه المغيرة إلى معاوية فى حديث جامع شامل للبخارى فى صحيحه . انظر فتح البارى ص ٩٥ جـ ٩ طبعة مصر بولاق سنة ١٣١٢ هـ .

وكتب زياد بن أبي سفيان إلى السيدة عائشة رضى الله عنها يسألها عن الحاج الذى يرسل هَدْيَهُ ، وهل يحرم عليه مايحرم على الحاج حتى ينحر ، كما أفتى ابن عباس ؟ فأجابته عن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : (فلم يحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء أحله الله له حتى نحر الهدى[١]) .

وهذا ابن عباس يسأل أبا رافع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه من يكتب له[٢] ، وفى رواية أنه كانت معه ألواح يكتب فيها[٣] ، وكان ابن عباس يحض على التعلم والكتابة ويقول : (قيدوا العلم بالكتاب ، من يشترى منى علما بدرهم ؟[٤]) ، وكان يقول أحيانا : (إنا لانكتب فى الصحف إلا الرسائل والقرآن[٥]) إلا أننا نرى ابن عباس نفسه يكتب غير الرسائل ، فيملى التفسير على مجاهد بن جبير ، ويقول له : اكتب[٦] ، ويكتب إليه الحجاج أمير العراق يستفتيه فى رجل أكره أخته ، فيكتب إليه بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٧] .

وسبق لى أن ذكرت كتابة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسنتكلم عن صحيفته بعد قليل .

---

(١) الاجابة لما استدركته عائشة على الصحابة ص ٩٥ ـ ٩٦ ، وقد قال الإمام الزهرى : (أول من كشف العمى عن الناس وبين لهم السنة فى ذلك عائشة ..) .

(٢) انظر ترجمة عبد الله بن عباس فى الاصابة .

(٣) انظر تقييد العلم ص ٩١ ـ ٩٢ و ١٠٩ .

(٤) العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣ وجامع بيان العلم ص ٧٢ ج ١ ، وتقييد العلم ص ٩٢ .

(٥) العلم لزهير بن حرب ص ١٨٧ .

(٦) انظر تفسير الطبرى بتحقيق أحمد محمد شاكر ص ٣١ ج ١ .

(٧) انظر البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث ص ٢١٤ ـــ ٢١٥ ج ٢ وقد ذكر هنا فى سبب ورود حديث (من تخطى الحرمتين فخطوا وسطه بالسيف) وهما حرمة الزنا وحرمة الأخوة . وكان ابن عباس ينفى كتابة أيضا ، انظر فتواه لنجدة بن عامر فى مسند الإمام أحمد ص ٥٦ ج ٤ .

وهذا أبو سعيد الخدرى الصحابى الجليل الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث « .. من كتب عنى غير القرآن فليمحه » يقول : (كنا لا نكتب إلا القرآن والتشهد[١]) .

وكان البَرَاء بن عازب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث ويكتب من حوله ، فعن عبد الله بن خنيس قال : (رأيتهم عند البراء يكتبون على أيديهم بالقصب[٢]) .

وهذا ورّاد كاتب المغيرة بن شعبة يكتب بين يدى المغيرة[٣] .

ويروى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يخرج من بيته غدوة حتى ينظر فى فى كتبه[٤] .

وهذا أنس رضى الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وملازمه فى بيته ليلا ونهاراً عشر سنوات ، كان يقول لبنيه : (يا بنى قيدوا العلم بالكتاب[٥]) ، وكان يملى الحديث[٦] حتى إذا ما كثر عليه الناس جاء بمَجَالٍ[٧] من كتب ، فألقاها ثم قال : (هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضتها عليه[٨]) .

---

(١) تقييد العلم ص ٩٣ .

(٢) جامع بيان العلم ٨١ ج ١ ، وانظر كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٣ : ب وتقييد العلم ص ١٠٥ .

(٣) انظر كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٨٧ .

(٤) انظر الآداب الشرعية ص ١٢٥ ج ٢ .

(٥) انظر كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩٢ وتقييد العلم ص٩٦ ونحوه فى ص ٩٧ وانظر صحيح مسلم بشرح النووى ص ٢٤٤ ج ١ حيث أعجبه حديث فأمر ابنه بكتابته .

(٦) انظر تاريخ بغداد ص ٢٥٩ ج ٨ .

(٧) مجال جمع مجلة والمجلة صحيفة يكتب فيها . أى التى لايهم صحفا . انظر لسان العرب مادة (جلل) ص ١٢٧ ج ١٣ .

(٨) تقييد العلم ص ٩٥ و ٩٦ .

تلك أخبار متعاضدة ، تثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم قد أباحوا الكتابة ، وكتبوا الحديث لأنفسهم ، وكتب طلابهم بين أيديهم ، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه ، كما ثبت ذلك عن على رضى الله عنه ، وعن ابن عباس ، وعن الحسن ، وأنس بن مالك رضى الله عنهم ، بعد أن كرهها بعض الصحابة عندما كانت أسباب المنع قائمة .

ويتجلى لنا رجوع بعض من كره الكتابة عن رأيه مما رويناه عن ابن مسعود وعن أبى سعيد الخدرى ، إذ بعد أن كانوا يكرهون أن يكتبوا فى الصحف غير القرآن كتبوا الاستخارة والتشهد ، وفى هذا دليل واضح أن النهى عن كتب ماسوى القرآن إنما كان مخافة أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره ، وأن يُشتغل عن القرآن بسواه ، ويقول الخطيب البغدادى : (فلما أُمن ذلك ، ودعت الحاجة إلى كَتْب العلم — لم يُكره كَتْبه ، كما لم تكره الصحابة كتب التشهد ، ولا فرق بين التشهد وبين[1] غيره من العلوم فى أن الجميع ليس بقرآن ، ولن يكون كتب الصحابة ما كتبوه من العلم وأمروا بكتبه إلا احتياطاً ، كما كان كراهيتهم لكتبه احتياطاً ، والله اعلم) .[2]

* * *

ثالثاً — التدوين فى عصر التابعين

لقد تلقى التابعون علومهم على يدى الصحابة ، وخالطوهم وعرفوا كل شىء عنهم ، وحملوا الكثير الطيب من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريقهم ، وعرفوا متى كره هؤلاء كتابة الحديث ومتى أباحوه ، فقد تأسوا بهم

(١) كان ينبغى ألا يكرر (بين) .
(٢) تقييد العلم ص ٩٤ .

وهم الرعيل الأول الذين حفظوا القرآن والسنة ، فمن الطبيعي أن تتفق آراء التابعين وآراء الصحابة حول حكم التدوين ، فإن الأسباب التي حملت الخلفاء الراشدين والصحابة على الكراهة هي نفسها التي حملت التابعين عليها ، فيقف الجميع موقفاً واحداً ، ويكرهون الكتابة ماذامت أسباب الكراهة قائمة ، ويجمعون على الكتابة وجوازها عند زوال تلك الأسباب ، بل إن أكثرهم يحض على التدوين ويشجع عليه . ولن نستغرب أن نرى خبرين عن تابعي أحدهما يمنع الكتابة والآخر يبيحها ، ولن نعجب من كثرة الأخبار التي تدل على الكراهة في مختلف أجيال التابعين — كبارهم وأواسطهم وصغارهم — والأخبار التي تدل على الإباحة — مادمنا نوجه كل مجموعة من هذه الأخبار وجهة تلائم الأسباب التي أدت إليها ، ونرى أن سبيل الصحابة المتأخرين وكبار التابعين إباحة تقييد الحديث ، بشروط تمتنع معها كراهته المأثورة عندهم عن النبي وكبار الصحابة ،[1] فقد امتنع عن الكتابة من كبار التابعين عَبيدة بن عمرو السلماني المرادي (— ٧٢ هـ) ، وإبراهيم بن يزيد التيمي (— ٩٢ هـ) ، وجابر بن زيد (— ٩٣ هـ) وإبراهيم النخعي (— ٩٦ هـ) ، ولم يرض عبيدة أن يكتب عنده أحد ، ولا يقرأ عليه أحد[2] ، وقد نصح إبراهيم فقال له : « لاتخلدن عني كتاباً »[3] ، وقبل وفاته دعا بكتبه فأحرقها وقال : (أخشى أن يليها قوم يضعونها غير مواضعها[4]) ، وكره ابراهيم النخعي أن تكتب

---

(١) انظر تقييد العلم : انظر تصدير أستاذنا الدكتور يوسف العش ص ١٩ ومقالته في مجلة الثقافة المصرية : العدد (٣٥٢) السنة السابعة الصفحة (٨) .

(٢ و ٣) جامع بيان العلم ص ٦٧ ج ١ وتقييد العلم ص ٤٥ و ٤٦ وانظر كتاب العلم لزهير ص ١٩٣ : ب .

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٧ ج ١ ونحوه في سنن الدارمي ص ١٢١ ج ١ وفي طبقات ابن سعد ص ٦٣ ج ٦ .

الأحاديث فى الكراريس ، وتشبه بالمصاحف ،[١] وكان يقول : (ما كتبت شيئاً قط)[٢] ، حتى إنه منع حماد بن سليمان من كتابة أطراف الأحاديث[٣] ، ثم تساهل فى كتابتها ، قال ابن عون : (رأيت حماداً يكتب عن إبراهيم فقال له إبراهيم : ألم أنهك ؟ قال إنما هى أطراف)[٤] .

ونسمع عامراً الشعبي (١٧ — ١٠٣هـ) يردد عبارته المشهورة : (ما كتبت سوداء فى بيضاء ، ولا سمعت من رجل حديثاً فأردت أن يعيده على[٥]) .

وقد ازدادت كراهة التابعين للكتابة عندما اشتهرت آراؤهم الشخصية ، فخافوا أن يدونها طلابهم مع الحديث ، وتحمل عنهم ، فيدخله الالتباس .

ويمكننا أن نستنبط أن من كره الكتابة وأمر ، إنما كره أن يدون رأيه ، وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور يوسف العش : (وأما من ورد عنهم

---

(١) انظر سنن الدارى ص ١٢١ ج ١ ، وجامع بيان العلم وفضله ص ٦٧ ج ١ وتقييد العلم ص ٤٨ .

(٢) تقييد العلم ص ٦٠ ، وكان يقول : (لاتكتبوا فتتكلوا) وانظر جامع بيان العلم ص ٦٨ ج ١ .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ص ١٩٠ ج ١.

(٤) سنن الدارى ص ١٢٠ ج ١ ونحوه فى كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٤ . قال أستاذنا الدكتور يوسف العش :(ولقد تشدد بعضهم فأراد ألا يكون سبيل للشبه أبداً فأحل كتابة العلم فى الأطراف — أى على أطراف العظام فقط — كإبراهيم النخعى ، فهى صعبة الحفظ ، والمشاهاة بينها وبين الكراريس بعيدة . اهـ) انظر : الصفحة (٧) من مجلة الثقافة المصرية عدد ٣٠٢ السنة السابعة . أقول : ليس المراد من الأطراف (أطراف العظام) بل أطراف الأحاديث . وهى أن يكتب المصنف طرف الحديث بحيث يعرف بقيته مع الجمع لأسانيده ، ويوضح ماذهبنا إليه رواية زهير بن حرب وفيها قول إبراهيم (لابأس بكتاب الأطراف) انظر كتاب العلم ص ١٩٤ . وكتب الأطراف كثيرة عقد لها صاحب الرسالة المستطرفة بحثا فى رسالته (صفحة ١٢٥ — ١٢٧) وكتاب (ذخائر المواريث) لعبد الغنى النابلسى هو أحد كتب الأطراف المشهورة .

(٥) العلم لزهير بن حرب ص ١٨٧ : ب ، وجامع بيان العلم ص ٦٧ ج ١ .

الامتناع عن الإكتاب من هذا الجيل ، فيؤول امتناعهم بما لايخالف ما انتهينا إليه ، فهم جميعاً فقهاء [1] وليس بينهم محدث ليس بفقيه ، والفقيه يجمع بين الحديث والرأى ، فيخاف تقييد رأيه واجتهاده إلى جانب أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم [2] .) ، ويوضح هذا بأمثلة تثبت ماذهب إليه ، فيقول : (إننا نجد فى الواقع أخباراً تروى كراهتهم لكتابة الرأى ، كاعتذار زيد بن ثابت عن أن يكتب عنه كتّاب مروان . . . وجاء رجل إلى سعيد بن المسيب — وهو من الفقهاء الذين روى امتناعهم عن الاكتاب — فسأله عن شيء فأملاه عليه ، ثم سأله عن رأيه فأجابه ، فكتب الرجل ، فقال رجل من جلساء سعيد : أيكتب يا أبا محمد رأيك ؟ فقال سعيد للرجل : ناولنيها ، فناوله الصحيفة فخرقها [3] ، وقيل لجابر بن زيد : إنهم يكتبون رأيك ، قال : تكتبون ماعسى أرجع عنه غداً [4] ؟

وكل هذه الأقوال رويت من علماء ، حدث المؤرخون عنهم أنهم كرهوا إكتاب الناس ، وهى تدل دلالة صريحة على أن الكراهة ليست فى كتابة العلم أى الحديث ، بل فى كتابة الرأى ، وأن الأخبار التى وردت فى النهى دون تخصيص إنما قصد بها الرأى خاصة . ويشابه هذا الأمر ماحدث فى أمر كراهة الرسول والصحابة الأولين : من التباس الحديث بالقرآن ، أو الانكباب عليه

---

(١) ذكر أستاذنا هنا أسماء بعض من ذكرتهم قبل وأضاف (سعيد بن المسيب (— ٩٤ هـ) . وطاوس (— ١٠٦ هـ) والقاسم (١٠٧ هـ) وغيرهم) . انتهى مالم نذكره فى النص .

(٢) تقييد العلم : التصدير ص ٢٠ .

(٣) راجع الخبر فى جامع بيان العلم ص ١٤٤ ج ٢ .

(٤) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٣١ ج ٢ .

دونه ، فما كانوا يخشونه من الحديث ، أصبح خشية التابعين الأولين من الرأى والتباسه بالحديث)[١] .

ويقوى هذا الرأى عندنا ماورد عن هؤلاء التابعين من أخبار يحثون فيها على الكتابة ، ويسمحون لطلابهم أن يكتبوا عنهم ، وقد نشطت الكتابة عندما فرق طلاب العلم بين النهى عن كتابة الرأى والنهى عن كتابة الرأى مع الحديث، ونرى التابعين ينكبون على الكتابة فى حلقات الصحابة ، بل إن بعضهم كان يحرص على الكتابة حرصاً شديداً ، فهذا سعيد بن جبير (— ٩٥ هـ) كان يكتب عن ابن عباس ، فإذا ما امتلأت صحفه كتب فى نعله حتى يملأها[٢] ، وعنه قال : (كنت أسير بين ابن عمر وابن عباس ، فكنت أسمع الحديث منهما ، فأكتبه على واسطة الرحل حتى أنزل فأكتبه[٣]) ، ورخص سعيد بن المسيب (— ٩٤ هـ) لعبد الرحمن بن حرملة بالكتابة حينما شكا إليه سوء حفظه[٤] ، ونرى عامراً الشعبى بعد أن كان يقول : ما كتبت سوداء فى بيضاء — يردد قوله : (الكتاب قيد العلم[٥]) ، وكان يحض على الكتابة ويقول : (إذا سمعتم منى شيئاً فاكتبوه ولو فى حائط)[٦] ، ومع هذا ، فقد روى أنه

---

(١) مجلة الثقافة المصرية : الصفحة ٨ — ٩ من العدد ٣٥٢ فى السنة السابعة .

(٢) انظر تقييد العلم ص ١٠٢ وانظر المحدث الفاصل : نسخة دمشق ٤ : ب جـ ٤ قوله (كتبت فى طومورهما حتى تملئا) .

(٣) تقييد العلم ص ١٠٣ ونحوه فى جامع بيان العلم ص ٧٢ جـ ١ وقارن بطبقات ابن سعد ص ١٧٩ — ١٨٠ جـ ٦ .

(٤) انظر المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٤ : ب جـ ٤ ، وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٣ جـ١ وتقييد العلم ص ٩٩ .

(٥) تقييد العلم ص ٩٩ ، وجامع بيان العلم ص ٧٥ جـ ١ .

(٦) المرجع السابق ص ١٠٠ وانظر نحوه فى المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٤ : ب ، جـ٤ ، والعلم لزهير ص ١٩٣ : ب .

لم يوجد له بعد موته إلا كتاب بالفرائض والجراحات [١] ، وإذا كانت كتبه التى تركها قليلة ولا تدل على نشاطه العلمى — فإننا نعزو هذا إلى قوة حافظته ، لأنه كان يعتمد على الحفظ أكثر من اعتماده على الكتابة ، وهذا لا ينافى قط املاءه لطلابه وحثهم على الكتابة . ويقول الضحاك بن مزاحم (— ١٠٥ هـ) : (إذا سمعت شيئاً فاكتبه ولو فى حائط) كما أنه أملى على حسين بن عقيل مناسك الحج [٢] .

وانتشرت الكتب حتى قال الحسن البصرى (— ١١٠ هـ) : (إن لنا كتبا كنا نتعاهدها [٣]) . وكان عمر بن عبد العزيز (٦١ — ١٠١ هـ) يكتب الحديث ، روى عن أبى قلابة قال : (خرج علينا عمر بن عبد العزيز لصلاة الظهر ومعه قرطاس ثم خرج علينا لصلاة العصر وهو معه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا الكتاب ؟ قال : حديث حدثنى به عون بن عبد الله فأعجبنى فكتبته [٤] . . .) وهذا يدل على أن الكتابة قد شاعت بين مختلف الطبقات ولم يعد أحد ينكرها فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى . وقد كثرت الصحف والكتب فى ذلك الوقت حتى لنرى مجاهد بن جبر (— ١٠٣هـ) يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إلى غرفته فيخرج إليهم كتبه فينسخون منها [٥] .

---

(١) انظر تاريخ بغداد ص ٢٣٢ ج ١١ .

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ ج ١ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٤ ج ١ ، والعلم لزهير ص ١٨٩ : ب .

(٤) سنن الدارى ص ١٣٠ ج ١ وسمع من يزيد الرقاشى أحاديث عن أنس فكتبها وفرض له فى الديوان ، انظر المحدث الفاصل ص ٣ : ب ، ج ٤ وستتحدث عن خدمة عمر بن عبد العزيز للسنة وأمره بكتابتها بعد قليل .

(٥) انظر سنن الدرامى ص ١٢٨ ج ١ ، وتقييد العلم ص ١٠٥ ونرى فى سنن الدرامى ص ١٢١ ج ١ أنه كان يكره أن يكتب العلم فى الكراريس ، فنحمل الكراهة على أن يضاهى بهذه القرآن أو أن تؤول الكراريس إلى غير أهلها .

ويطلب هشام بن عبد الملك من عامله أن يسأل رجاء بن حيوة (— ١١٢هـ) عن حديث ، فيقول رجاء : (فكنت قد نسيته لولا أنه كان عندى مكتوبا)[١] .

وكان عطاء بن أبى رباح (— ١١٤ هـ) يكتب لنفسه ، ويأمر ابنه أحيانا أن يكتب له[٢] ، وكان طلابه يكتبون بين يديه[٣] ، وقد بالغ فى حض طلابه على التعلم والكتابة ، فعن أبى حكيم الهمدانى قال : (كنت عند عطاء بن أبى رباح ، ونحن غلمان ، فقال : يا غلمان ، تعالوا اكتبوا ، فمن كان منكم لايحسن كتبنا له ، ومن لم يكن معه قرطاس أعطيناه من عندنا[٤] !!) .

ونشطت الحركة العلمية وازدادت معها الكتابة والقراءة على العلماء ، ويدل على هذا ماروى عن الوليد بن أبى السائب قال : رأيت مكحولا ونافعا وعطاء تقرأ عليهم الأحاديث[٥] ، وعن عبيد الله بن أبى رافع ، قال : (رأيت من يقرأ على الأعرج — عبد الرحمن بن هرمز (— ١١٧ هـ) ، حديثه عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم[٦] . .) وها هو ذا نافع مولى ابن عمر (— ١١٧ هـ) يملى العلم على طلابه ، وطلابه يكتبون بين يديه[٧] . ويصور لنا قتادة بن دعامة السدوسى (— ١١٨ هـ) بإجابته لمن يسأله عن كتابة الحديث — موقف هذا الجيل من التابعين من الكتابة ، بعد أن فشت فيهم وانتشرت وأصبحت من ضروريات

---

(١) سنن الدارمى ص ١٢٩ جـ ١ ، وتقييد العلم ص ١٠٨ .
(٢) انظر المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٣ : ب جـ ٤ .
(٣) انظر سنن الدرامى ص ١٢٩ جـ ١ .
(٤) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٣ : ب جـ ٤ .
(٥) الكفاية فى علم الرواية ص ٢٦٤ .
(٦) طبقات ابن سعد ص ٢٠٩ جـ ٥ .
(٧) انظر سنن الدارمى ص ١٢٩ و ١٢٦ جـ ١ .

كل طالب علم ، فيقول : (وما يمنعك أن تكتب ، وأخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب : « قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى »[1]) ؟

وكثرت الصحف المدونة ، حتى إن خالداً الكلاعى (— ١٠٤ ﻫ) جعل علمه فى مصحف له أزرار وعرا[2] .

* * *

رابعاً — خدمة عمر بن عبد العزيز للسنة

عاش عمر بن عبد العزيز فى جو علمى ، فلم يكن بعيداً — وهو أمير الأمة — عن العلماء ، ورأيناه يكتب بنفسه بعض الأحاديث ، ويشجع العلماء ، وقد رأى أن يحفظ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويجمعه ، وربما دعاه إلى هذا نشاط التابعين آنذاك وإباحتهم للكتابة حين زالت أسباب الكراهة ، لأننا لا نعقل أن يأمر بجمع السنة وتدوينها والعلماء كارهون لهذا ، ولو كرهوا كتابتها ما استجابوا لدعوته ، ومما لاشك فيه أن خشيته من ضياع الحديث دفعته إلى العمل لحفظه .

ويمكننا أن نضم إلى ما ذكرنا سبباً آخر كان له أثر بعيد فى نفوس العلماء حملهم على تنقيح السنة وحفظها ، وهو ظهور الوضع بسبب الخلافات السياسية والمذهبية ، ويؤكد لنا هذا ما يرويه أخو ابن شهاب الزهرى عنه قال: (سمعته — يعنى ابن شهاب — يقول : لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها —

---

(١) تقييد العلم ص ١٠٣ والآية ٥٢ من سورة طه وانظر طبقات ابن سعد ص ٢ قسم ٢ ج ٧ وما روى منه فى سنن الدارمى من كراهية يحمل على الوجه الذى بيناه آنفا ، انظر سنن الدارمى ص ١٢٠ ج ١ .

(٢) انظر تذكرة الحفاظ ص ٨٧ ج ١ .

ما كتبت حديثاً ، ولا أذنت فى كتابه [١]) ورأى الزهرى هذا رأى أكثر علماء ذلك العصر ، فإن حرصهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يدرس لايقل عن حرصهم على سلامته من الكذب والوضع ، فكان هذان العاملان من أقوى العوامل التى حفزت همم العلماء إلى خدمة السنة وكتابتها ، عندما تبنت الحكومة جمعها رسميا على يدى الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ، الذى اتخذ خطوة حازمة فكتب إلى الآفاق : (انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه [٢]) .

وكان فيما كتب إلى أهل المدينة : (انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله [٣]) . وكان فى كتابه إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (— ١١٧ هـ) عامله على المدينة أن (اكتب إلىّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحديث عمرة ، فإنى خشيت دروس العلم وذهابه [٤]) . وفى رواية : أمره (أن يكتب له العلم من عند عمرة بنت عبد الرحمن (— ٩٨ هـ) ، والقاسم بن محمد (— ١٠٧ هـ) ، فكتبه له [٥]) وفى رواية : (فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تَقبلْ إلا حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولْيُفشوا العلمَ ،

---

(١) تقييد العلم ص ١٠٨ .

(٢) فتح البارى ص ٢٠٤ جـ ١ رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان .

(٣) سنن الدارمى ص ١٢٦ جـ ١ وقارن بالمحدث الفاصل نسخة دمشق ص٤ : آ جـ ٤ وقارن بكتاب الأموال ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٤) سنن الدارمى ص ١٢٦ جـ ١ ، وقارن بطبقات ابن سعد ص ١٣٤ قسم ٢جـ٢ وبالأموال لابن سلام ص ٥٧٨ وبالتاريخ الصغير للبخارى ص ١٠٥ وتقييد العلم ص ١٠٥ .

(٥) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢١ ، والمراد أن يكتب له حديث عمرة ، لأنها توفيت قبل سنة (٩٩)هـ، السنة التى تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وواضح هذا فى الخبر الذى قبله .

وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً [١]) .

كما أمر ابن شهاب الزهرى (— ١٢٤ هـ) وغيره بجمع السنن [٢] ، وربما لم يكتف عمر بن عبد العزيز بأمر من أمرهم بجمع الحديث ، فأرسل كتباً إلى الآفاق يحث المسؤولين فيها على تشجيع أهل العلم على دراسة السنة وإحيائها ، ومن هذا مايرويه عكرمة بن عمار قال : (سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول : (أما بعد فأمروا أهل العلم أن ينتشروا فى مساجدهم ، فإن السنة كانت قد أميتت [٣]) كما كتب (إنه لا رأى لأحد فى كتاب ، وإنما رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض به سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا رأى لأحد فى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤]) ، بل هناك أخبار تثبت أن عمر بن عبد العزيز قد شارك العلماء فى مناقشة بعض ماجمعوه ، من ذلك مارواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشى قال : (رأيت عمر بن العزيز جمع الفقهاء ، فجمعوا له أشياء من السنن ، فإذا جاء الشىء الذى ليس العمل عليه ، قال : هذه زيادة ليس العمل عليها [٥]) .

لقد بذل عمر بن عبد العزيز جهده فى المحافظة على السنة — مع قصر

---

(١) فتح البارى ص ٢٠٤ ج ١ .

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ ج ١ .

(٣) المحدث الفاصل ص ١٠٣ .

(٤) سنن الدارى ص ١١٤ ج ١ ، وانظر جامع بيان العلم وفضله ص ٣٤ ج ٢ .

(٥) قبول الأخبار ص ٣٠ ، وتوفى أبو الزناد سنة (١٣١ هـ) ، ومن ذلك أيضاً (ماروى عن يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه ، قال : حضرت عبيد الله بن عبد الله ، دخل على عمر بن عبد العزيز ، فأجلس قوماً يكتبون مايقول ، فلما أراد أن يقوم ، قال له عمر : (صنعنا شيئاً) قال : وما هو يا ابن عبد العزيز ؟ قال : (كتبنا ماقلت) قال : وأين هو ؟ قال : نجىء به فنرق . تقييد العلم ص ٤٥) ربما كره الكتابة عنه لأنه ممن يحب الاعتماد على الحفظ كما سنذكر بعد قليل .

مدة خلافته ، فقد طلب من أبي بكر بن حزم جمع الحديث ، وأبو بكر هذا من أعلام عصره ، قال فيه مالك بن أنس : (ما رأيت مثل أبي بكر بن حزم أعظم مروءة ولا أتم حالا .. ولى المدينة والقضاء والموسم [١]) ، وعنه قوله : (لم يكن عندنا أحد بالمدينة عنده من علم القضاء ما كان عند أبي بكر [٢]) . وكان قد طلب منه أن يكتب إليه حديث عمرة بنت عبد الرحمن ، وهي خالته ، نشأت فى حجر عائشة ، وكانت من أثبت التابعين فى حديث عائشة رضي الله عنها [٣] .

وأما القاسم بن محمد بن أبي بكر (٣٧ — ١٠٧هـ) الذى ذكر فى بعض الروايات فهو أحد الفقهاء السبعة فى المدينة ، وعالم أهل زمانه ، تلقى علمه عن عمته عائشة رضى الله عنها ، وعائشة أم المؤمنين معروفة بعلمها وتعمقها فى السنة ، وهى غنية عن التعريف .

وأما ابن شهاب أحد الذين شاركوا فى الجمع والكتابة فهو أحد أعلام ذلك العصر ، كان قد كتب السنن وما جاء عن الصحابة أثناء طلبه العلم [٤] . وكان ذا مكانة رفيعة ، فقد روى عن أبي الزناد أنه قال : (كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع ، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس) [٥] .

وإذا كانت المنية قد اخترمت الخليفة الراشد الخامس قبل أن يرى الكتب

(١ و ٢) تهذيب التهذيب ص ٣٩ جـ ١٢ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٤٣٨ جـ ١٢ ، وقال سفيان بن عيينة : أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة ، القاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وعمرة بنت عبد الرحمن . انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٤٥ .

(٤) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ جـ ١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦ : أ .

(٥) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٣ جـ ١ ، وانظر ترجمة ابن شهاب فى الفصل الثانى من الباب الخامس من هذا الكتاب .

التى جمعها أبو بكر — كما يذكر ذلك بعض العلماء[١] — فإنه لم تفته أولى ثمار جهوده ، التى حققها ابن شهاب الزهرى الذى يقول : (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن ، فكتبناها دفتراً دفتراً ، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً[٢]) ، وعلى هذا يحمل ماقاله المؤرخون والعلماء : (أول من دون العلم ابن شهاب[٣]) وله أن يفخر بعمله هذا ، ويقول : (لم يدون هذا العلم أحد قبل تدوينى[٤]) .

وقد اعتبر علماء الحديث تدوين عمر بن عبد العزيز هذا أول تدوين للحديث ورددوا فى كتبهم هذه العبارة : (وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع على رأس المائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز)[٥] أو نحوها .

ويفهم من هذا أن التدوين الرسمى كان فى عهد عمر بن عبد العزيز ، أما تقييد الحديث وحفظه فى الصحف والرقاع والعظام فقد مارسه الصحابة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينقطع تقييد الحديث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، بل بقى جنباً إلى جنب مع الحفظ حتى قيض للحديث من يودعه المدونات الكبرى .

وسيتبين لنا بعد قليل أن والد عمر بن عبد العزيز قد سبق ابنه فى طلب تدوين الحديث . وأن أهل الحديث لم يمسكوا طوال القرن الأول عن تقييد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منتظرين سماح الخليفة وأمره ، وقد ذكرنا

---

(٦) انظر قواعد التحديث ص ٤٧ .

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ ج ١ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٦ ج ١ وحلية الأولياء ص ٣٦٣ ج ٣

(٣) الرسالة المستطرفة ص ٤ .

(٤) تدريب الراوى ص ٤٠ وقواعد التحديث ص ٤٦ ، ونحو هذا فى توجيه النظر ص ٦ وإرشاد السارى ص ١٤ ج ١ .

شيئاً من هذا فيما عرضناه من أخبار عن سماح الصحابة والتابعين بالكتابة وكتاباتهم لأنفسهم .

وهكذا كانت نهاية القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى خاتمة حاسمة لما كان من كراهة الكتابة وإباحتها ، فدونت السنة فى صحف وكراريس ودفاتر ، وكثرت الصحف فى أيدى طلاب الحديث .

* * *

وقد يظن الباحث أن كراهة الكتابة قد ولت ، وانهزمت أمام اباحتها ، ولم تعد هذه الإباحة مجرد رأى ، بل انتقل الرأى إلى التطبيق فعلا ، وتبنت الدولة الإشراف على الكتابة ، ولكنا لا نلبث أن نسمع أصوات من يكره الكتابة تعلو من جديد ، وكان بعض هؤلاء من نفس جيل التابعين الثانى (أواسطهم) ومن صغارهم ، فقد راعهم أن يروا الحديث فى كراريس ودفاتر ، وأن يعتمد طلاب الحديث والعلماء على الكتب ، ويهملوا الحفظ ، فتمسكوا بالآثار التى لاتبيح الكتابة ، وأبوا أن ينكب أهل الحديث على دفاترهم ، ويجعلوها خزائن علمهم ، ولم يعجبهم أن يخالف سبيل الصحابة فى الحفظ والاعتماد على الذاكرة ، وحق لهم أن يكرهوا الاتكال على الكتب ، لأن فى الاتكال على المكتوب وحده اضعافاً للذاكرة ، وانصرافاً عن العمل به .

وها هو ذا الضحاك بن مزاحم الذى أباح الكتابة سابقاً ، والذى أملى مناسك الحج حين زال خوفه من أسباب الكراهة — ها هو ذا يقول : (يأتى على الناس زمان تكثر فيه الأحاديث حتى يبقى المصحف بغباره لا ينظر فيه[1]) وفى رواية عنه (يأتى على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشعش عليه العنكبوت ، لاينتفع بما فيه ، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث[2])

---

(١) جامع بيان العلم ص ٦٥ ج ١ .

(٢) جامع بيان العلم ص ١٢٩ ج ٢ .

لقد تصور عاقبة هذا الإقبال على الكتابة ، وجعل الحديث فى دفاتر وكراريس ، فأعلن إنكاره مدوياً : (لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف)[(١)] .

ويمكننا أن نحمل قول الزهرى : (كنا نكره كتاب العلم ، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا ألا نمنعه أحداً من المسلمين[(٢)]) — على ما بيناه ، لأننا نعرف أن الإمام الزهرى كان يكتب الحديث وهو فى دور طلب العلم ، وكان يشجع أصحابه على الكتابة ، حتى إنه كان يكتب فى ظهر نعله خشية — أن يفوته الحديث[(٣)] وفعلا عندما طلب منه الخليفة هشام بن عبد الملك أن يكتب لبنيه خرج وأملى على الناس الحديث[(٤)] وقال : (استكتبنى الملوك ، فأكتبتهم ، فاستحييت الله إذ كتبها الملوك ألا أكتبها لغيرهم)[(٥)] .

وقد سبق أن بينت أن حرصه على تنقيح السنة كان عاملا كبيراً فى تدوينه الحديث هو وبعض معاصريه .

وكان سعيد بن عبد العزيز يفخر بحفظه ويقول : (ما كتبت حديثاً قط)،[(٦)] ونرى الإمام الأوزاعى بعد أن كان يملى على طلابه ويصحح لهم مايكتبونه عنه ليجيزهم بروايته[(٧)] ، ينفر من الاعتماد على الكتاب ، ويتشاءم مما سيؤول إليه الحفظ فلا يسره الميل عن طريق السلف الذين كانوا يتلقون الحديث من

---

(١) تقييد العلم ص ٤٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ ، وطبقات ابن سعد ص ٣٥ قسم ٢ ج ٢ .
(٣) انظر تقييد العلم ص ١٠٧ .
(٤) انظر حلية الأولياء ص ٣٦٣ ج ٣ .
(٥) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٧ ج ١ .
(٦) سنن الدارمى ص ١٢١ ج ١ ، وتذكرة الحفاظ ص ٢٠٣ ج ١ وتوفى سعيد بن عبد العزيز سنة (١٦٧ هـ) .
(٧) انظر الكفاية ص ٣٢٢ .

أفواه العلماء، فيقول : (كان هذا العلم شيئاً شريفاً إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه[1]، ويتذا كرونه فلما صار فى الكتب ذهب نوره ، وصار إليه غير أهله)[2] .

ونرى بعض من كره الكتابة فى هذا العصر يعتمد عليها فى حفظ الحديث ثم يمحو ما كتبه بعد أن يحفظه ، وقد فعل غير واحد من السلف أمثال سفيان الثورى (— ١٦١ ﻫ) ، وحماد بن سلمة (— ١٦٧ ﻫ[3]) وغيرهما . ويروى فى هذا عن خالد الحذاء (— ١٤١ ﻫ) : (ما كتبت شيئاً قط إلا حديثاً طويلا ، فإذا حفظته محوته)[4] .

وكان كثير من التابعين يمحون كتبهم قبل وفاتهم ، أو يوصون بكتبهم إلى من يثقون به ، ليفيد منها ، خشية أن تقع فى غير مواضعها ، فقد أوصى أبو قلابة بكتبه إلى أيوب[5] ، كما أوصى شعبة بن الحجاج ابنه بغسل كتبه بعد موته .

إن محاولة هؤلاء المانعين من الكتابة ، لم تخفف من نشاط الكتابة ، ولم تقف أمام هذا الجيل الذى نشأ عليها ، فقد كان تيار إباحة الكتابة أقوى بكثير من تيار كراهتها .

(١و٢) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٦٨ ج ١ وفيه (يتلاقونه) وما أثبتناه أصوب ويتفق مع ما ورد فى المصادر الأخرى . وسنن الدارمى ص ١٢١ ج ١ وتقييد العلم ص ٦٤ ، توفى الأوزاعى سنة (١٥٧ ﻫ) .

(٣) انظر تقييد العلم ص ٥٨ — ٦٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٥) انظر طبقات ابن سعد ص ١٣٥ ج ٧ وتذكرة الحافظ ص ٨٨ ج ١ ، وتوفى أبو قلابة سنة (١٠٤ ﻫ) .

(٦) انظر تقييد العلم ص ٦٢ ، ولد شعبة بن الحجاج سنة (٨٢ ﻫ) وتوفى سنة (١٦٠ ﻫ) .

ونرى أيوب السختيانى (— ١٣١ هـ) يرد على من يعيب تقييد الحديث ، فيقول : (يعيبون علينا الكتاب !! ثم يتلو « عِلْمُها عِندَ رَبّى فى كِتابٍ » [١]).

وما لبث التياران أن توحدا وألحت الحاجة القاهرة إلى الكتابة على هؤلاء المانعين بأن يجاروا التيار العام ، ويعتمدوا فى حفظ السنة على الحفظ والكتابة معا .

يقول ابن الصلاح : (ثم إنه زال ذلك الخلاف وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك ، وإباحته ، ولولا تدوينه فى الكتب لدرس فى الأعصر الآخرة [٢]).

ويقول الرامهرمزى : (والحديث لايضبط إلا بالكتاب ، ثم بالمقابلة والمدارسة ، والتعهد والتحفظ ، والمذاكرة والسؤال ، والفحص عن الناقلين ، والتفقه بما نقلوه ، وإنما كره الكتاب من كره فى الصدر الأول ، لقرب العهد وتقارب الإسناد ، ولئلا يعتمده الكاتب فيهمله ، ويرغب عن تحفظه ، والعمل به ، فأما والوقت متباعد ، والاسناد غير متقارب ، والطرق مختلفة ، والنقلة متشابهون ، وآفة النسيان معترضة ، والوهم غير مأمون ، فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى . . [٣]).

ولم تكن ظاهرة الاختلاف هذه ناشئة عن انقسام العلماء إلى حزبين أو مدرستين ، إحداهما تبيح الكتابة والأخرى تمنعها ، بل نشأت من تلك الأسباب التى بيناها ، فإذا ما زالت أسباب المنع أباح العلماء الكتابة ، وإذا قامت عاد أكثرهم فمنع الكتابة ، وإذا ماخيف من الاتكال على الكتاب وإهمال الحفظ علت أصوات المنع ثانية تطالب بالاعتماد على الذاكرة ، حتى

(١) تقييد العلم ص ١١٠ وسنن الدارمى ص ١٢١ جـ١ ، وجامع بيان العلم ص٧٣ جـ١.
(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٧١ .
(٣) المحدث الفاصل ص ٧١ .

أجمعت الأمة على الكتابة التي أصبحت من ضروريات حفظ الحديث لايمكن الاستغناء عنها .

خامسا ــ المصنفون الأوائل في الحديث

لم يلبث هذا التيار من النشاط العلمي وكتابة الحديث أن طالع العالم بمدونات حديثية مختلفة على يدى أبناء النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، وقد ظهرت تلك المصنفات والكتب فى أوقات متقاربة ، وفى مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية ، فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة فى الصحف والكراريس ، أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب ، وكانت هذه المصنفات تشتمل على السنن وما يتعلق بها ، وكان بعضها يسمى مصنفا وبعضها يسمى جامعاً أو مجموعاً وغير ذلك . وقد اختلف فى أول من صنف وبوب ، فقيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى (ــ ١٥٠ هـ) بمكة ، ومالك بن أنس (٩٣ ــ ١٧٩ هـ) أو محمد بن إسحاق (ــ ١٥١ هـ) بالمدينة المنورة ، وصنف بها محمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب (٨٠ ــ ١٥٨ هـ) موطأ أكبر من موطأ مالك ، والربيع بن صبيح (ــ ١٦٠ هـ) أو سعيد بن أبى عروبة (ــ ١٥٦ هـ) أو حماد ابن سلمة (ــ ١٦٧ هـ) بالبصرة ، وسفيان الثورى (٩٧ ــ ١٦١ هـ) بالكوفة ، ومعمر بن راشد (٩٥ ــ ١٥٣ هـ) باليمن ، والإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى (٨٨ ــ ١٥٧ هـ) بالشام ، وعبد الله بن المبارك (١١٨ ــ ١٨١ هـ) بخراسان ، وهشيم بن بشير (١٠٤ ــ ١٨٣ هـ) بواسط [1] ، وجرير بن عبد الحميد

---

(١) انظر تاريخ بغداد ص ٨٥ جـ ١٤ ، وتذكرة الحفاظ ص ٢٢٩ جـ ١

(١١٠ — ١٨٨ ﻫ) بالرى ، وعبد الله بن وهب (١٢٥ — ١٩٧ ﻫ) بمصر[1] ، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم فى النسج على منوالهم ، وقد كان هذا التصنيف بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعضها فى مؤلف أو جامع ، وأما جمع حديث إلى مثله فى باب واحد ، فقد سبق إليـه التابعى الجليل عامر الشعبى (١٩ — ١٠٣ ﻫ) ، الذى يروى عنه أنه قال : هذا باب من الطلاق جسيم ، إذا اعتدّت المرأة ورثت[2] ، وساق فيه أحاديث[3] .

وكان معظم هذه المصنفات ، والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين ، كما يتجلى لنا هـذا فى موطأ الإمام مالك بن أنس[4] ، ثم رأى بعضهم أن تفرد أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فى مؤلفات خاصة ، فألفت المسانيد ، وهى كتب تضم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيدها خالية من فتاوى الصحابة والتابعين ، تجمع فيها أحاديث كل صحابى — ولو كانت فى مواضيع مختلفة — تحت اسم مسند فلان . ومسند فلان . وهكذا .

---

(١) انظر المحدث الفاصل ص ١٥٥ : ب وما بعدها ، وتدريب الراوى ص ٤٠ ، والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ١٨٦ : ب — ١٨٧ : آ ومقدمة فتح البارى ص ٤ ومنهج ذوى النظر ص ١٨ .

(٢) المحدث الفاصل ص ١٥٥ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع نسخة الاسكندرية ص ١٨٨ : ا ، ومقدمة فتح البارى ، وتدريب الراوى ص ٤٠ .

(٣) تدريب الراوى ص ٤٠ ، ومنهج ذوى النظر ص ١٨ ، وهناك أخبار كثيرة ، تثبت أن جمع الأبواب بعضها إلى بعض كان بعد جمع الأحاديث فى باب واحد . من ذلك ما رواه خالد بن دينار قال : قلت لأبى العالية : أعطنى كتابك . قال : ما كتبت الا باب الصلاة ، وباب الطلاق . وقال يحيى بن سعيد كان سفيان صاحب أبواب . وقال سفيان الثورى كم من أحاديث طنانات لا نبوبه لها قد أخرجنا عن صاحب هذا القبر (ابن جريج) فى أبواب . انظر الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع نسخة الإسكندرية ص ١٨٨ : ا — ١٨٨ : ب ومن عاصم الأحول (— ١٤٢ ﻫ) قال : (قرأت على الشعبى أحاديث الفقه وأجازها لى) انظر الكفاية ص ٢٦٤ .

(٤) فى موطأ مالك ثلاثة آلاف مسألة وسبعمائة حديث انظر الرسالة المستطرفة ص ١١ .

وأول من ألف المسانيد أبو داود سليمان بن الجارود الطيالسي (١٣٣ — ٢٠٤ هـ)[1] وتبعه بعض من عاصره من أتباع التابعين وأتباعهم ، فصنف أسد بن موسى الأموي (— ٢١٢ هـ) ، وعبيـــد الله بن موسى العبسي (— ٢١٣ هـ) ، ومسدد البصري (— ٢٢٨ هـ) ونعيم بن حماد الخزاعي المصري (— ٢٢٨ هـ) ، واقتفى الأئمة آثارهم ، كأحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١ هـ) ، واسحاق بن راهويه (١٦١ — ٢٣٨ هـ) ، وعثمان بن أبي شيبة (١٥٦ — ٢٣٩ هـ) وغـيرهم[2] .

ويعتبر مسند الإمام أحمد بن حنبل — وهو من أتباع أتباع التابعين — أوفى تلك المسانيد وأوسعها .

جمع هؤلاء الحديث ودونوه بأسانيده . واجتنبوا الأحاديث الموضوعة ، وذكروا طرقاً كثيرة لكل حديث ، يتمكن بها جهابذة هذا العلم وصيارفته من معرفة الصحيح من الضعيف ، والقوي من المعلول ، مما لا يتيسر لكل طالب علم ، فرأى بعض الأئمة أن يصنفوا في الحديث الصحيح فقط ، فصنفوا كتبهم على الأبواب ، واقتصروا فيها على الحديث الصحيح ، وظهرت الكتب الستة في هذا العصر ، عصر أتباع أتباع التابعين ، وكان أول من صنف ذلك الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ — ٢٥٦ هـ) ، ثم الإمام مسلم ابن الحجاج القشيري (٢٠٤ — ٢٦١ هـ) ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ — ٢٧٥ هـ) ، وأبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي

---

(١) انظر الرسالة المستطرفة ص٤٦ ، وقد طبع هذا المسند طبعة جيدة في حيدر آباد بالهند سنة ١٣٢١ .

(٢) انظر منهج ذوي النظر ص٨ ، وتدريب الراوي ص٤٠ ، والرسالة المستطرفة ص٦٢ — ٤٧ .

(— ٢٧٩ هـ)، وأحمد بن شعيب الخراسانى النسائى (٢١٥ — ٣٠٣ هـ) ، ثم ابن ماجه ، وهو عبد الله بن محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزوينى (٢٠٧ — ٢٧٣ هـ)[1] . وقد خدمت هذه الكتب بالشرح والتهذيب والاختصار والاستخراج عليها من قبل العلماء الذين جاءوا بعدهم .

أهم نتائج هذا الفصل :

١ — لم يكن السبب فى عدم تدوين السنة رسمياً فى عهده صلى الله عليه وسلم جهل المسلمين آنذاك بالكتابة والقراءة ، فكان فيهم القارئون الكاتبون، الذين دونوا التنزيل الحكيم ، بل كان ذلك لأسباب أخرى ، أهمها الخوف من التباس القرآن بالسنة ، وكيلا ينشغل المسلمون بكتابة السنة عن كتابة القرآن ودراسته وحفظه .

٢ — ليس هناك تعارض بين ماروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم من إباحة الكتابة وكراهتها ، فكره الكتابة لمن لايحسنها أو لمن يستطيع الحفظ ، وأباحها لمن لايستطيع الحفظ ، وإن كان بعضهم يرى أن النهى كان أول الإسلام حتى لا يلتبس القرآن بالسنة ، ثم انتهينا إلى إباحة الرسول صلى الله عليه وسلم كتابة السنة مطلقاً ، وليست هذه الأخبار من وضع مذاهب متخاصمة متضادة .

٣ — ماورد عن الصحابة والتابعين وأتباعهم من كراهة للكتابة أو إباحتها

---

(١) ليس من موضوعنا أن نتكلم على هذه الكتب الستة الآن، ولكن لابد لنا من أن نشير إلى أن صحيح الإمام البخارى وصحيح مسلم هما فى الدرجة الأولى من هذه الكتب ، ثم تأتى السنن الأربعة فى رتبة تليها ، وسنن ابن ماجه دونها جميعاً لأن فيها ما أنكره وضعفه بعض العلماء ، وعلماء الحديث فى ذلك أقوال يضيق بنا المقام لذكرها . انظر تدريب الراوى ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، وسبل السلام ص ١١ — ١٢ ج ١ .

لم يكن ناشئا من قيام حزبين أحدهما يبيح الكتابة والآخر يكرهها ، بل أباحوا الكتابة حين زالت أسباب المنع ، وكرهوا الكتابة حين وجدت أسباب منعها وكراهتها ، كخشية التباس القرآن بالسنة ، أو الانشغال بالسنة عن القرآن ، أو خوف مضاهاة الكتاب الكريم بكراريس الحديث وكتبه . وقد ثبتت أخبار الكراهة عن بعض من أباحوا الكتابة ، كما ثبتت أخبار الإباحة عن بعض من كرهوا الكتابة ، وكانت غايتهم جميعاً واحدة ، وهى المحافظة على القرآن والسنة : أن يلتبس أحدهما بالآخر ، ثم انعقد الاجماع على إباحة الكتابة حين زالت أسباب كراهتها .

٤ — خشى عمر بن عبد العزيز اندراس السنة ، وتسرب الوضع إليها ، فأمر بجمعها على أيدى كبار علماء التابعين ، وأمر المسؤولين فى مختلف أقاليم الدولة الإسلامية بالاعتناء بالحديث الشريف ، وتشجيع العلماء على عقد حلقات دراسته فى المساجد ، وشارك عمر بن عبد العزيز نفسه العلماء فى ذلك ، ووزع قبل وفاته ما كتبه الإمام الزهرى . فلعمر الفضل الكبير فى تحميل الدولة مسؤولية حفظ السنة رسمياً .

وأما التدوين الفردى فقد وقع فعلا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد الصحابة والتابعين ، ولم تبق السنة مهملة طيلة القرن الأول إلى عهد عمر بن عبد العزيز ، بل تم حفظها فى الصدور جنباً إلى جنب مع حفظها فى الصحف والكراريس .

٥ — فى مطالع القرن الهجرى الثانى ، تحول عمل العلماء من جمع الحديث وتقييده ، إلى تصنيفه على الأبواب وضم هذه الأبواب إلى بعضها

فى مصنف أو جامع ، فلم يكن مطلع هذا القرن مبدأ لتدوين السنة وتقييدها ، بل كان مبدأ للتصنيف على الأبواب ، وقد ظهرت هذه المصنفات فى أوقات متقاربة فى مختلف مراكز الاشعاع العلمى بالدولة الإسلامية .

ثم ظهرت المسانيد فالصحاح ، وبهذا يكون تدوين الحديث ، قد مر بمراحل منتظمة حتى انتهى إلينا فى كتب الصحاح والمسانيد .

* * *

الفصل الثاني

ما دوّن في صدر الإسلام ...

من الثابت أن بعض الصحابة كانوا قد كتبوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أحاديثه بإذن خاص منه كعبد الله بن عمرو، والأنصارى الذى كان لا يحفظ الحديث، ثم كتب غيرهم جانباً من حديثه بعد إذنه صلى الله عليه وسلم بالكتابة إذناً عاما كما سبق، ولدينا أخبار كثيرة عما كتبه الصحابة من صحف.

غير أنا لا نعرف كل ما تتضمنه هذه الصحف، لأن بعض الصحابة والتابعين كانوا يحرقون مالديهم من الصحف أو يغسلونها قبل وفاتهم، وكان بعضهم يوصي بما عنده لمن يثق به، كانوا يفعلون هذا خشية أن تؤول تلك الصحف إلى غير أهل العلم[1]. ونحن لا نشك فى أن كثيراً من صحف الصحابة قد كتب فى عهده عليه الصلاة والسلام، وأن أكثر ما كتب تناقله الناس فى حياة أصحابه وبعد وفاتهم عن طريق أبنائهم وأحفادهم أو ذويهم. روى ابن عبد البر بسنده عن أبى جعفر محمد بن على قال: وجد فى قائم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيفة فيها مكتوب: «ملعون من سرق تخوم الأرض، ملعون من تولى غير مواليه. أو قال ملعون من جحد نعمة من أنعم عليه[2]».

---

(1) من أخبار محو الكتب وحرقها ما فعله ابو بكر رضى الله عنه بما كان عنده من الصحف انظر تذكرة الحفاظ ص ٥ ج ١، وانظر أخبار غيره فى تقييد العلم ص ٥٩ — ٦٣ وفى كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٢، وفى الجامع لأخلاق الراوى ص ٤ : ٤ : آ

(2) جامع بيان العلم وفضله ص ٧١ ج ١.

وقد اشتهر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب خطير الشأن هو ذلك الكتاب الذى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابه بتدوينه فى السنة الأولى للهجرة ، وقد نصت فيه حقوق المسلمين المهاجرين والأنصار وعرب يثرب وموادعة يهودها ، وتكررت فيه عبارة (أهل الصحيفة) خمس مرات ، وجاء فى مقدمته : (هذا كتاب محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس . . . الخ[١]) وهذا دليل على أن هذا الدستور أو الميثاق للدولة الإسلامية الفتية ، كان مدونا فى صحيفة اشتهر أمرها وتواتر نقلها .

وربما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأحكام مكتوبة إلى عماله ، ومن هذا ما يرويه ابن أبى ليلى عن عبد الله بن عكيم ، قال قرىء علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب[٢] » .

وكتب أبو بكر لأنس بن مالك كتابا فيه الصدقات التى فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية أن الكتاب كان ممهوراً بخاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .

وروى نافع عن ابن عمر أنه وجد فى قائم سيف عمر بن الخطاب رضى الله

---

(١) سيرة ابن هشام ص١١٩ جـ٢ ، والأموال ص ٢٠٢ ، وانظر مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى ص ١٥ .

(٢) معرفة علوم الحديث ص٨٦ ، وقال الحاكم : هذا منسوخ بحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بشاة ميتة فقال : هلا استمتعتم بجلدها ؟ قالوا يا رسول الله إنها ميتة ، فقال إنما حرم أكلها انظر معرفة علوم الحديث ص ٨٦ ، وانظر أخبار أهل الرسوخ فى الفقه والحديث بمقدار المنسوخ من الحديث ص ٢٧ .

(٣) رد الدارمى على بشر المريسى ص ١٣٢ ، وذكر الإمام أحمد هذا الكتاب فى مسنده ص ١٨٣ - ١٨٤ حديث ٧٢ جـ١ .

عنه صحيفة فيها صدقة السوائم[١] ، وقد تكون هذه النسخة هي التي ورثها سالم بن عبد الله بن عمر ، وقرأها عنده ابن شهاب الزهري[٢] . ويؤكد لنا هذا ما روى عن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري قال : (لما استخلف عمر بن العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات ، وكتاب عمر بن الخطاب . . . ووجد عند آل عمر كتاب عمر في الصدقات ، مثل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فنسخا له[٣] .)

وقد اشتهرت صحيفة أمير المؤمنين على بن أبي طالب التي كان يعلقها في سيفه ، فيها أسنان الإبل ، وأشياء من الجراحات ، وحرم المدينة ، ولا يقتل مسلم بكافر[٤] .

وروى عن ابن الحنفية : محمد بن على بن أبي طالب (— ٨١ هـ) قال : أرسلني أبي قال : (خذ هذا الكتاب ، فاذهب به إلى عثمان . فإن فيه أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصدقة[٥]) .

وروى عن مسعر عن معن قال : (أخرج لى عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا ، وحلف لى أنه بخط أبيه بيده[٦]) .

---

(١) انظر الكفاية ص ٣٥٣ — ٣٥٤ ، وانظر توجيه النظر ص ٣٤٨ .

(٢) انظر الأموال ص ٣٦٠ ورد الدارى على بشر ص١٣١ .

(٣) الأموال ص٣٥٨ — ٣٥٩ ويقال كان عند عمر بن الخطاب نسخ العهود والمواثيق ملء صندوق إلا أنها احترقت يوم الجماجم (٨٢ هـ) وما بقى منها قضت عليه ظروف الزمن وغارة التتار انظر الوثائق السياسية ، المقدمة : ى وقد بقيت بعض كتبه صلى الله عليه وسلم حتى القرن التاسع الهجرى ككتابه باقطاع تميم الدارى، انظر مسالك الأبصار ص١٧٣ — ١٧٥ .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ص ٤٤ و ٣٥ و ١٢١ و١٣١ جـ ٢ وفتح البارى ص ٨٣ جـ ٢ ورد الدارمى على بشر ص ١٣٠ .

(٥) رد الدارمى على بشر ص ١٣٠ ، وفتح البارى ص ٢٣ جـ ٧ .

(٦) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ جـ ١ .

وكان عند سعد بن عبادة الأنصارى (— ١٥ هـ) كتاب أو كتب فيها طائفة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى ابن هذا الصحابى من كتب أبيه بعض أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم[١] . ويروى الإمام البخارى أن هذه الصحيفة كانت نسخة من صحيفة عبد الله بن أبى أوفى ، الذى كان يكتب الأحاديث بيده ، وكان الناس يقرءون عليه ماجمعه بخطه[٢] .

وكان عند أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم (— ٣٥ هـ)[٣] كتاب فيه استفتاح الصلاة ، دفعه إلى أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث (— ٩٤ هـ)[٤] أحد الفقهاء السبعة .

وكان عند أسماء بنت عميس (— ٣٨ هـ) كتاب جمعت فيه بعض أحاديثه صلى الله عليه وسلم[٥] .

عن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد بن مسلمة الأنصارى (— ٤٢ هـ)[٦] وجدنا فى ذؤابة سيفه كتابا : (بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت النبى صلى الله عليه

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٧٢ جـ ١ ، ونظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ١١٨ وانظر صحيفة همام بن منبه ص ١٦ نقلا عن الترمذى .

(٢) انظر علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص ١٣ وهامشها وفيه (عبد الله بن أوفى) وهو خطأ مطبعى والصواب (عبد الله بن أبى أوفى) انظر صحيح البخارى بشرح السندى ص ١٤٣ جـ ٢ باب الصبر عند القتال . وعبد الله بن أبى أوفى صحابى شهد الحديبية ، وعمر بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، توفى سنة (٨٧ هـ) وهو آخر من توفى بالكوفة من الصحابة . انظر تقريب التهذيب ص ٤٠٢ جـ ١ .

(٣) وقيل وفاته بعد قتل عثمان وقيل مات فى خلافة على رضى الله عنهما .

(٤) انظر الكفاية ص ٣٣٠ .

(٥) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ١١٨ .

(٦) كان محمد بن مسلمة من أفضل الصحابة وهو أحد الثلاثة الذين قتلوا كعب بن الأشرف واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة فى بعض غزواته ، اعتزل الفتن ولم يشهد الجمل ولا صفين وتوفى وهو ابن (٧٧) سنة . انظر تهذيب التهذيب ص ٤٥٤ جـ ٩ .

وسلم يقول : إن لربكم فى بقية دهركم نفحات ، فتعرضوا له . . .[1]) .

وكتبت سبيعة الأسلمية إلى عبد الله بن عتبة تروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أمرها بالنكاح بعد قليل من وفاة زوجها بعد ما وضعت[2] .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا لوائل بن حجر (— ٥٠ هـ) لقومه فى حضرموت ، فيه الخطوط الكبرى للاسلام ، وبعض أنصبة الزكاة ، وحد الزنا ، وتحريم الخمر ، وكل مسكر حرام[3] .

وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن حزم (— ٥٣ هـ) على اليمن ، وأعطاه كتابا فيه الفرائض والسنن والديات وغير ذلك[4] .

وكان أبو هريرة (— ٥٩ هـ) يحتفظ بكتب فيها أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى الفضيل بن حسن بن عمرو بن أمية الضمرى عن أبيه أنه قال : تحدثت عند أبى هريرة بحديث فأنكره ، فقلت إنى قد سمعته منك ، فقال : إن كنت سمعته منى فهو مكتوب عندى ، فأخذ بيدى إلى بيته ، فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد ذلك الحديث ، فقال :

---

(١) المحدث الفاصل ١١٢ .

(٢) الكفاية ص ٣٣٧ ، وسبيعة هذه هى بنت الحارث زوجة سعد بن خولة انظر تهذيب التهذيب ص ٤٣٤ ج ١٢ .

(٣) انظر الإصابة ص ٣١٢ ج ٦ وانظر تفصيل ذلك فى المصباح المضىء ص ١١٢ : ا — ١١٢ : ب .

(٤) انظر الإصابة ص ٢٩٣ ج ٤ ترجمة (٥٨٠٥) . وقد أخرج الكتاب أبو داود والنسائى وابن حبان والدارمى وغير واحد كما ذكر ابن حجر فى ترجمته وانظر رد الدارمى على بشر ص ١٣١ وانظر فتوح البلدان ص ٨١ وقارن بالأموال ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

قد أخبرتك أنى إن كنت حدثتك به فهو مكتوب عندى[١] . وكان بشير بن نهيك قد قرأ عليه الكتاب الذى كتبه عنه قبل أن يفارقه[٢] .

وجمع سمرة بن جندب (— ٦٠ هـ) أحاديث كثيرة فى نسخة رواها عنه ابنه سليمان[٣] ، ويحتمل أن تكون هذه النسخة هى الرسالة التى كتبها سمرة إلى بنيه ، وقال فيها محمد بن سيرين (فى رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير[٤]) .

الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق هـ — ٦٥ هـ) :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمح لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما بكتابة الحديث ، لأنه كان كاتباً محسنا ، فكتب عنه الكثير ، واشتهرت صحيفة بن عمرو رضى الله عنه (بالصحيفة الصادقة) كما أراد كاتبها أن يسميها ، لأنه كتبها عن رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم ، فهى أصدق ما يروى عنه ، وقد رآها مجاهد بن جبر (٢١ — ١٠٤ هـ) عند عبد الله

---

(١) انظر جامع بيان العلم ص ٧٤ جـ ١ . قال ابن عبد البر بعد هذا الخبر (هذا خلاف ما تقدم فى أول الباب عن أبى هريرة أنه لم يكتب ، وأن عبد الله بن عمرو كتب وحديثه بذلك أصح فى النقل من هذا لأنه أثبت اسناداً عند أهل الحديث) وقال ابن حجر أقوى من من ذلك أنه لا يلزم من وجود الحديث مكتوباً عنده أن يكون بخطه ، وقد ثبت أنه لم يكن يكتب ، فتعين أن المكتوب عنده بغير خطه . انظر فتح البارى ص ٢١٨ جـ ١ . أقول وصحة خبر عدم كتابة أبى هريرة لا تنفى صحة وجود الكتب عنده ، وقد يكون ممن يعرف القراءة دون الكتابة ، فيكلف من يكتب له .

(٢) طبقات ابن سعد ص ١٦٢ جـ ٧ والعلم لزهير بن حرب : ١٩٣ ب والجامع لأخلاق الراوى ص ١٣٧ : ب ـ والمحدث الفاصل ص ١٢٨ : ا

(٣) انظر تهذيب التهذيب ص ١٩٨ جـ ٤ .

(٤) المرجع السابق ٢٣٦ جـ ٤ أخرج البخارى أول رسالة سمرة بن جندب إلى بنيه فى ترجمة محمد بن ابراهيم بن خبيب وفيها : (بسم الله الرحمن الرحيم . من سمرة بن جندب إلى بنيه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن نصلى كل ليلة من المكتوبة ما قل أو كثر ، ونجعلها وتراً .) التاريخ الكبير ص ٢٠٧ ترجمة ٢٩ قسم ١ جـ ١ .

ابن عمرو ، فذهب ليتناولها ، فقال له : (مه يا غلام بنى مخزوم) قال مجاهد : قلت : ما كتبت شيئا . قال : (هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بينى وبينه فيها أحد .[1]) ، وكانت هذه الصحيفة عزيزة جداً على ابن عمرو حتى قال (مايرغبنى فى الحياة إلا الصادقة والوهط[2]) ، وربما كان يحفظها فى صندوق له حلق[3] ، خشية عليها من الضياع ، وقد حفظ هذه الصحيفة أهله من بعده ، ويرجح أن حفيده عمرو بن شعيب كان يحدث منها[4] .

وتضم صحيفة عبد الله بن عمرو ألف حديث كما يقول ابن الأثير[5] .

إلا أن إحصاء أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لا يبلغ خمسمائة حديث[6] ، وإذا لم تصلنا الصحيفة الصادقة كما كتبها ابن عمرو بخطه ،

---

(١) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٢ : ب ج ٤ وطبقات ابن سعد ص ١٨٩ قسم ١ ج ٧ ونحوه فى تقييد العلم ص ٨٤ .

(٢) سنن الدارمى ص ١٢٧ ج ١ والوهط أرض لعمرو بن العاص تصدق بها كان يقوم بها . المصدر نفسه .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ص ١٧١ حديث ٦٦٤٥ ج ١٠ ، وكتاب العلم المقدسى ص ٣٠ باسناد صحيح .

(٤) انظر تهذيب التهذيب ص ٤٨ – ٩ : ج ٨ .

(٥) انظر أسد الغابة ص ٢٣٣ ج ٣ .

(٦) انظر مسند عبدالله بن عمرو وصحيفته الصادقة ص ١٦٧ حيث أحصى السيد محمد سيف الدين عليش أحاديث الصادقة ، فكان منها :

٢٠٢ حديثاً من أصل ٦٣٢ حديثاً رواها الامام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو
و ٨١ حديثاً من أصل ٢٣٢ حديثاً رواها أبو داود فى سننه عن عبد الله بن عمرو
و ٥٣ حديثاً من أصل ١٢٨ حديثا رواها النسائى فى سننه عن عبد الله بن عمرو
و ٦٥ حديثاً من أصل ١١٧ حديثاً رواها ابن ماجه فى سننه عن عبد الله بن عمرو
و ٣٥ حديثاً من أصل ٨٩ حديثاً رواها الترمذى فى سننه عن عبد الله بن عمرو
فعدد أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهى أحاديث الصادقة كما هو المرجح بلغ =

فقد نقل إلينا الإمام أحمد محتواها فى مسنده [١] ، كما ضمت كتب السنن الأخرى جانباً كبيراً منها [٢] .

ولهذه الصحيفة أهمية علمية عظيمة ، لأنها وثيقة علمية تاريخية ، تثبت كتابة الحديث النبوى الشريف، بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبإذنه [٣] .

=(٤٣٦) حديثاً مما فيه المكرر عند الإمام أحمد وفى السنن الأربعة ، وقد يكون حكم ابن الأثير مبنيا على أن جميع ما روى عن ابن عمرو هو الصادقة وليس ببعيد .

(١) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر : الجزء التاسع من الصفحة ٢٣٥ الحديث ٦٤٧٧ والجزء العاشر بكامله وكذلك الحادى عشر والجزء الثانى عشر إلى الصفحة ٥٠ الحديث ٧١٠٣ .

(٢) انظر مسند عبدالله بن عمرو وصحيفته الصادقة ص ٦٧١ .

(٣) ورد طعن فى الصحيفة الصادقة من بعض أهل العلم كالمغيرة بن مقسم الضبى الذى قال : (كانت لعبد الله بن عمرو صحيفة تسمى الصادقة ماسرنى أنها لى بفلسين) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٩٣ ، وفى ميزان الاعتدال ص ٢٩٠ ج ٢ (مايسرنى أن صحيفة عبد الله بن عمرو عندى بتمرتين أو بفلسين .) إذا صحت هذه الرواية عن المغيرة فلا يجوز حملها على ظاهرها ولا قبولها هكذا مقتضبة لأنه ذكر ذلك فى معرض الكلام على الروايات الضعيفة ، فإذا ضعف نسخة ابن عمرو فإنما ضعفها لأنها انتقلت (وجادة) فهو لا يقبل أن تكون عنده هذه الصحيفة بالطريق الذى حملها الرواة ، لأن الوجادة أضعف طرق التحمل ، فقد كانوا لايحبون أن ينقلوا الأخبار من الصحف بل عن الشيوخ ، ولا يجوز أن يحمل قول المغيرة على غير هذا الوجه ، لأنه ثبت أن عبد الله قد كتبها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم . ويمكننا للاستئناس أن نراجع أقوال العلماء فى راوى هذه الصحيفة فى ميزان الاعتدال ص ٢٨٩ ج ٢ وفى تهذيب التهذيب ص ٤٨ — ٥٥ ج ٨ وفى فتح المغيث ص ٦٨ — ٦٩ ج ٤ حيث يتبين لنا قيمة الصحيفة وثقة راويها عمرو بن شعيب . قال الإمام تقى الدين بن تيمية : (وأما أئمة الإسلام ، وجمهور العلماء فيحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، إذا صح النقل إليه مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة ونحوهما ، ومثل الشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية . . . قالوا : (وإذا كانت نسخة مكتوبة من عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان هذا أوكد لها وأدل على صحتها) ولهذا كان فى نسخة عمرو بن شعيب من الأحاديث الفقهية التى فيها مقدرات ما احتاج إليه عامة علماء الإسلام .) انظر قواعد التحديث ص ٣٦ — ٣٧ .

وكان عبد الله يملي الحديث على تلاميذه ،[١] وقد نقل عنه تلميذه حسين بن شفي ابن ماتع الأصبحي في مصر كتابين ، أحدهما فيه (قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، والآخر مايكون من الأحداث إلى يوم القيامة)[٢] . ونحن هنا لم نتعرض إلا للصحيفة الصادقة ، فقد كان عند ابن عمرو كتب كثيرة عن أهل الكتاب أصابها يوم اليرموك في زاملتين[٣] ، وقد ادعى بشر المريسي أن (عبد الله بن عمرو كان يرويهما للناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقال له لا تحدثنا عن الزاملتين)، وهذه الدعوى باطلة ، فقد ثبت أن ابن عمرو كان أمينا في نقله وروايته، لايحيل ما روى عن النبي على أهل الكتاب ، كما لايحيل ما روى عن أهل الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم[٤] .

---

(١) انظر تاريخ دمشق ص ٤٩ ج ٦ .

(٢) خطط المقريزي ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ج ٢ .

(٣) الزاملة هي البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع . وقيل هي الدابة التي يحمل عليها الطعام والمتاع من الإبل وغيرها . انظر : لسان العرب مادة (زمل) ص ٣٢٩ ج ١٣ .

(٤) انظر رد الدارمي على بشر ص ١٣٦ ، وقد ذكر محمود أبو رية صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية في الصفحة ١٦٢ هامش (٣) أن عبد الله بن عمرو (كان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب ، وكان يرويها للناس (عن النبي) فتجنب الأخذ عنه كثير من أئمة التابعين ، وكان يقال له : لا تحدثنا عن الزاملتين ص ١٦٦ ج ١ فتح الباري) انتهى ما نقلناه عن أضواء على السنة المحمدية ومن العجيب أن يسمع إنسان مثل هذا الخبر ويصدقه لأن الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا أصدق الناس لسانا ، وأتقى الأمة قلوبا ، وأخلص البرية للرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يعقل أن يكذب أمثال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما على رسول الله فيعزو إليه ما سمعه من أهل الكتاب . فهرعت إلى فتح الباري وإذا به ـ شهد الله ـ خاليا من عبارة أبي رية ، فليس في قول ابن حجر (عن النبي) إنما زادها الكاتب من عنده ! ! !

فهل تكذيب الصحابة ، والافتراء عليهم ، والانتحال على العلماء ، أمثال ابن حجر وغيره من الأمانة العلمية ؟ ! وقد ثبت لنا سوء نية أبي رية في مواضع كثيرة يظهر بعضها في بحثنا عن أبي هريرة .

ويكفي ابن عمرو فخراً أنه كان أول من دون الحديث بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه وفى مختلف أحواله فى الغضب والرضا .

كتب ابن عباس (٣ ق هـ — ٦٨هـ) .

اشتهر ابن عباس بطلب العلم ودأبه عليه ، وكان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل الصحابة ويكتب عنهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا له فقال : (اللهم الهمه الحكمة وعلمه التأويل[١]) ، وعندما توفى ابن عباس ظهرت كتبه ، وكانت حمل بعير[٢] .

* * *

ويروى أن عبد الله بن عمر (١٠ ق هـ — ٧٣هـ) كان إذا خرج إلى السوق نظر فى كتبه وقد أكد الراوى أن كتبه هذه كانت فى الحديث[٣] .

صحيفة جابر بن عبد الله الأنصارى (١٦ ق هـ — ٧٨هـ)

يحتمل أن تكون هذه الصحيفة غير المنسك الصغير الذى أورده مسلم فى كتاب الحج[٤] ، وقد ذكرها ابن سعد فى ترجمة مجاهد ، وكان يحدث

(١) الكفاية ص ٢١٣ ، وراجع طلبه للعلم فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٤ : آ ، وفى تقييد العلم ص ٩١ — ٩٢ و ١٠٩ وانظر ترجمته فى الفصل الأول من الباب الخامس من هذا الكتاب .

(٢) عن موسى بن عقبة (— ١٤١) صاحب المغازى قال : (وضع عندنا ابن كريب مولى ابن عباس حمل بعير من كتب ابن عباس) . انظر طبقات ابن سعد ص ٢١٦ ج ٥

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٠ : آ ويروى أن ابن عمر كره كتابة الحديث ، قال سعيد بن جبير (٤٥ — ٩٥ هـ) كنت أسأل ابن عمر فى صحيفة ولو علم بها كانت الفيصل بينى وبينه . انظر طبقات ابن سعد ص ١٧٩ ج ٦ ، وربما كان ابن عمر يكتب لنفسه أو سمح بذلك آخراً .

(٤) انظر تذكرة الحفاظ ص ٤١ ج ١ .

عنها [١]، وكان التابعى الجليل قتادة بن دعامة السدوسى (— ١١٨ هـ) يرفع من قيمة هذه الصحيفة ويقول (لأنا بصحيفة جابر بن عبد الله أحفظ منى لسورة البقرة[٢] .

وفى رواية : (إنما يحدث قتادة عن صحيفة سليمان اليشكرى ، وكان له كتاب عن جابر بن عبد الله [٣] .) ويحتمل أن يكون سليمان اليشكرى قد نقل من جابر صحيفته ، وهو أحد تلاميذه، يروى ابن حجر أن سليمان جالس جابرا ، وكتب عنه صحيفة [٤]، ولعل قتادة كان قد روى صحيفة جابر بن عبد الله عن سليمان اليشكرى ، فإن أم سليمان قدمت بكتاب سليمان ، فقرئ على ثابت وقتادة وأبى بشر . . . فرووها كلها ، وأما ثابت فروى منها حديثاً واحداً [٥] ، فصحيفة جابر كانت مشهورة ، وكتاب سليمان اليشكرى عنه كان مشهوراً أيضاً ، ويدعم هذا روايات كثيرة ، منها ماروى عن شعبة أنه كان يرى أن أحاديث أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر إنما هو كتاب سليمان اليشكرى [٦] وكانت لجابر حلقة فى المسجد النبوى يملى فيها على طلابه الحديث ، فكتب منهم كثير أمثال وهب ابن منبه (ـ ١١٤ هـ [٧]) ، وقد روى أبو الزبير وأبو سفيان والشعبى عن جابر

---

(١) طبقات ابن سعد ص ٤٣٣ جـ ٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ص ١ — ٢ قسم ٢ جـ ٧ .

(٣) القياس لابن قيم الجوزية ص ١٠٨ .

(٤) انظر تهذيب التهذيب ص ٢١٤ جـ ٤ وانظر تقييد العلم ص ١٠٨ حول كتابته .

(٥) انظر الكفاية ص ٣٥٤ .

(٦) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٧) انظر صحيفة همام بن منبه ص ١٤ . وكان كثير من التابعين يذهبون إلى جابر رضى الله عنه يكتبون عنه الحديث ، من هذا ماروى عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال : كنت أختلف إلى جابر بن عبد الله أنا ومحمد وأبو جعفر . معنا ألواح نكتب فيها : انظر تقييد العلم ص ١٠٤ ، وأبو جعفر هو محمد بن على (ـ ١١٤ هـ) ومحمد هو ابن الحنفية . كما كتب عنه أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس (ـ ١٢٦ هـ) كثيراً انظر : تهذيب التهذيب ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ جـ ٩ .

وهم قد سمعوا منه وأكثر ما رووه من الصحيفة .[١]

ويروى عن عروة بن الزبير (٢٢ — ٩٣ هـ) قوله : (كتبت الحديث ثم محوته ، فوددت أنى فديته بما لى وولدى وأنى لم أمحه[٢]) وربما كتب غيرها ثم احترقت يوم الحرة فحزن عليها ، فكان يقول : (وددت لو أن عندى كتبى بأهلى ومالى[٣]) .

وكان عند خالد بن معدان الكلاعى الحمصى (— ١٠٤ هـ) مصحف له أزرار وعرا أودع فيه علمه[٤] . وكان عند بحير بن سعيد نسخة عن خالد ابن معدن[٥] .

وأوصى أبو قلابة (عبد الله بن زيد الجرمى — ١٠٤ هـ) بكتبه لأيوب السختيانى (٦٨ — ١٣١ هـ) فجىء بها فى عدل راحلة[٦] ، ودفع أيوب كراءها بضعة عشر درهما[٧] .

وقال الأعمش قال الحسن البصرى (٢١ — ١١٠ هـ) إن لنا كتبا نتعاهدها[٨] .

وكان عند محمد الباقر بن على بن الحسين (٥٦ — ١١٤ هـ) كتب كثيرة

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ص ٢١٤ ج ٤ ، وعرضت على الشعبى صحيفة كتبت عن جابر فقال سمعت هذا كله عن جابر رضى الله عنه . المحدث الفاصل ص ٩١ : ب .

(٢) تقييد العلم ص ٦٠ . ونحوه فى المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٤ : ب ج ٤ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٧١ ج ١ ، وفى رواية ابن سعد أنها كتب (فقه) انظر طبقات ابن سعد ص ١٣٣ ج ٥ .

(٤) انظر تذكرة الحفاظ ص ٨٨ ج ١ .

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ص ١٦٦ ج ١ .

(٦) انظر طبقات ابن سعد ص ٢١٦ ج ٥ وتذكرة الحفاظ ص ٨٨ ج ١

(٧) انظر طبقات ابن سعد ص ٢١٧ قسم ٢ ج ٧ .

(٨) انظر المحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٣ . ب ج ٤ كما كانت له كتب حديث وفقه وكان بعض أصحابه يأخذها فينسخها ثم يردها . انظر طبقات ابن سعد ص ١٧ قسم ٢ ج ٧ .

سمع بعضها منه ابنه جعفر الصادق . وقرأ بعضها[١] .

وكان عند مكحول الشامى كتب[٢] وعند الحكم بن عتبة[٣] . وكان عند بكير بن عبد الله بن الأشج (— ١١٧ هـ) عالم المدينة كتب انتقلت إلى ابنه مخرمة بن بكير[٤] .

وكان عند قيس بن سعد المكى (— ١١٧ هـ) كتاب انتقل إلى حماد بن سلمة (— ١٦٧ هـ)[٥] .

ومما لاشك فيه أن العلماء فى مطلع القرن الهجرى الثانى صنفوا كثيراً من الكتب ، وكثرت الكتب بين أيديهم ، حتى بلغت كتب الإمام الزهرى حداً كبيراً ، نقلت بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (٨٨ — ١٢٦ هـ) من خزائنه على الدواب[٦] .

وقبل أن نتكلم عن شيوع التدوين وانتشاره فى مطلع القرن الهجرى الثانى وعن كتب ومصنفات العلماء آنذاك ، لابد لنا من أن نتكلم عن صحيفة همام بن منبه لما لها من أهمية تاريخية فى تدوين الحديث .

الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه (٤٠ — ١٣١ هـ)[٧] .

لقى همام بن منبه أحد أعلام التابعين الصحابى الجليل أبا هريرة ، وكتب

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ص ١٠٤ ج ٢ ، ومحمد الباقر أحد الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية . انظر تهذيب التهذيب ص ٣٥٠ ج ٩ وشذرات الذهب ص ١٤٩ ج ١ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣١٨ .

(٣) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ١٣٠ .

(٤) انظر تهذيب التهذيب ص ٧٠ — ٧١ ج ١٠ ، وعلوم الحديث ١١٠ .

(٥) تذكرة الحفاظ ص ١٩٠ ج ١ .

(٦) انظر تاريخ الإسلام الذهبى ص ١٤٦ ج ٥ .

(٧) ذكر الدكتور صبحى الصالح وفاة همام سنة (١٠١ هـ) اعتماداً منه على طبقات =

عنه كثيراً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجمعه فى صحيفة أو صحف أطلق عليها اسم (الصحيفة الصحيحة [١])، وربما سماها بالصحيحة على مثال (الصحيفة الصادقة) لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، وحق له أن يسميها بالصحيحة ، لأنه كتبها عن صحابى خالط رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع سنين ، وروى عنه الكثير .

وقد وصلتنا هذه الصحيفة كاملة ، كما رواها ودونها همام عن أبى هريرة ، فقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله فى مخطوطتين متماثلتين فى دمشق وبرلين [٢] .

وتزداد ثقتنا بصحيفة همام حينما نعلم أن الإمام أحمد قد نقلها بتمامها فى مسنده ، كما نقل الإمام البخارى عددا كثيراً من أحاديثها فى صحيحه فى أبواب شتى [٣] .

ولهذه الصحيفة أهمية تاريخية فى تدوين الحديث الشريف ، لأنها حجة قاطعة ، ودليل ساطع على أن الحديث النبوى كان قد دون فى عصر مبكر (وتصحح

= ابن سعد ص ٣٩٦ ج ٥ لأنها أقدم المصادر ثم قال فى هامش الصفحة ٢٢ من كتابه علوم الحديث ومصطلحه : (وعند ابن حجر والنووى وسواهما توفى همام سنة ١٣١ هـ. ولعله تصحف لقول ابن سعد (مات سنة احدى أو اثنتين ومئة) وانظر التصحيحات الملحقة بصحيفة همام ص ٢) . إلا أنى أرجح وفاته سنة (١٣١ هـ) لأن سفيان بن عيينة قال : كنت أتوقع قدوم همام عشر سنين ، وسفيان بن عيينة ولد سنة (١٠٧ هـ) فلا يعقل أن يقول هذا بعد وفاة همام بسنوات ، ثم إن معمرا كان قد أدركه وقد كبر وسقط حاجباه على عينيه ، فهذا الوصف ينطبق على من سنه أكثر من ستين سنة وهى السن التى ذكرتها وقالها غير ابن سعد . انظر تهذيب التهذيب ص ٦٧ ج ١١ . حيث ذكر إدراك معمر بن راشد لهمام .

(١) اقدم تدوين فى الحديث النبوى صحيفة همام بن منبه ص ٢٠ عن كشف الظنون .

(٢) راجع صحيفة همام ص ٢١ — ٢٣ حيث وصف الدكتور حميد الله المخطوطتين .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٠ .

الخطأ الشائع : أن الحديث لم يدون إلا فى أوائل القرن الهجرى الثانى[١]) ، ذلك لأن هماما لقى أبا هريرة — ولا شك أنه كتب عنه — قبل وفاته وقد توفى أبو هريرة سنة (٥٩) للهجرة فمعنى ذلك أن هذه الوثيقة العلمية قد دونت قبل هذه السنة ، أى فى منتصف القرن الهجرى الأول ، وقد ثبت لنا أن عبد الله ابن عمرو دوّن فى عهد الرسول صحيفته الصادقة ، وها نحن أولاء يثبت لنا تدوين صحيفة همام فى منتصف القرن الهجرى الأول ، مما يدل على أن العلماء كانوا قد باشروا التدوين فعلا قبل أمر عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان من الأولى أن نذكر هذه الصحيفة بين كتب أبى هريرة ، لأنها املاؤه لهمام ، إلا أننا فضلنا الكلام عنها هنا لاشتهارها باسمه ، وقد رواها عنه تلميذه معمر ابن راشد ثم عبد الرزاق عن معمر ثم هلم جرا[٢] .

وتضم صحيفة همام هذه (١٣٨) حديثاً وقد ذكر ابن حجر أن هماما سمع من أبى هريرة نحو أربعين ومائة حديث بإسناد واحد[٣] ، وهذا يزيدنا ثقة بهذه الصحيفة ، لاتفاق عدد ماجاء فيها من الأحاديث وما ذكره العلماء .

* * *

وشاع التدوين فى النصف الأول من القرن الهجرى الثانى بين العلماء ، حتى أصبح من النادر ألا نرى لأحدهم تصنيفا أو جامعا فيه بعض أبواب فى الحديث .

وقد سبق أن ذكرت أول من صنف فى مختلف البلاد الإسلامية .

وممن شارك فى التصنيف أو وجد عنده كتب فى تلك الحقبة يحيى بن أبى كثير

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص٢٢ .

(٢) انظر صحيفة همام بن منبه ص ٢٠ .

(٣) تهذيب التهذيب ٢٧ ج ١١ .

(— ١٢٩ هـ[١]) ، معاصر الإمام الزهرى . وكان عند محمد بن سوقه (—١٣٥هـ[٢]) كتاب ، وكان عند زيد بن أسلم (—١٣٦هـ) كتاب فى التفسير[٣] لعل فيه كثيرا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عند موسى ابن عقبة (— ١٤١ هـ[٤]) أحاديث لنافع مولى ابن عمر مكتوبة فى صحيفة . وكان للأشعث بن عبد الملك الحرانى (— ١٤٢ هـ[٥]) كتاب انتقل إلى سليمان صاحب البصرى . وقد كتب عقيل بن خالد بن عقيل (— ١٤٢ هـ)[٦] حديثا كثيراً عن الزهرى ، وكان أعلم الناس بحديثه . وكان ليحيى بن سعيد الأنصارى (— ١٤٣ هـ[٧]) كتاب انتقل إلى حماد بن زيد .

وكتب عوف بن أبى جميلة العبدى (— ١٤٦ هـ[٨]) أطراف الحديث عن الحسن البصرى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه الأطراف بعد ذلك عند يحيى بن سعيد القطان (١٢٠ — ١٩٨ هـ[٩]) . وكان عند جعفر الصادق بن محمد الباقر (٨٠ — ١٤٨ هـ[١٠]) رسائل وأحاديث ونسخ ، وكان من ثقات المحدثين ، وكان ليونس بن يزيد بن أبى النجاد (— ١٥٢ هـ)

---

(١) انظر معرفة علوم الحديث ص ١١٠ والمحدث الفاصل ص ٩٤ وفى رواية أنه توفى سنة (١٣٢ هـ) فى النيامة انظر ص ١٠٦ منه .

(٢) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٧٥ وتهذيب التهذيب ص ٢١٠ ج ٩ ويفهم من المرجع الأول أن لمنصور بن المعتمر كتابا أيضاً .

(٣) انظر تذكرة الحفاظ ص ١٢٤ ج ١ وتهذيب التهذيب ص ٣٩٥ ج ٣ .

(٤) انظر الكفاية ص ٢٦٦ .

(٥) انظر المحدث الفاصل ص ١٣٦ : ب

(٦) انظر تذكرة الحفاظ ص ١٥٢ ج ١ .

(٧) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٨ .

(٨) انظر تهذيب التهذيب ص ١٦٧ ج ٨ .

(٩) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٣٦ .

(١٠) انظر تهذيب التهذيب ص ١٠٤ ج ٢ .

كتاب شهد له ابن المبارك بالصحة [١] ، وكان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة المسعودى (— ١٦٠ هـ) كتب أتى بها شعبة من بغداد [٢] ، وكان لزائده بن قدامة (— ١٦١ هـ) كتب عرضها على سفيان الثورى ، [٣] وقد كان زائدة نظيراً لشعبة بن الحجاج . [٤] وكان لسفيان الثورى (٩٧ — ١٦١ هـ) كتب كثيرة منها فى الحديث (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير [٥]) . وقال ابن المبارك : ابراهيم بن طهمان (— ١٦٣ هـ) والسكرى يعنى أبا حمزة (— ١٦٧هـ) صحيحا الكتب [٦] .

وكان لشعبة بن الحجاج (— ١٦٠ هـ) كتاب الغرائب فى الحديث [٧] ، وكان لعبد العزيز بن عبد الله الماجشون (— ١٦٤ هـ) كتب مصنفة رواها عنه ابن وهب [٧] ، وكان لعبد الله بن عبد الله بن أويس (— ١٦٩ هـ) — ابن عم مالك وصهره على أخته — كتب انتهت إلى ابنه اسماعيل [١٠] . وأوصى سليمان بن بلال (— ١٧٢ هـ) بكتبه إلى عبد العزيز بن أبى حازم [١١] ،

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ص ٤٥٠ جـ ١١ ، وتقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٢ . وكان يونس يكتب عن الزهرى . انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٠٥ .

(٢) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ١٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

(٤) انظر تذكرة الحفاظ ص ٢٠٠ جـ ١ .

(٥) انظر الفهرست لابن النديم ص ٣١٥ .

(٦) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٠ .

(٧) انظر الرسالة المستطرفة ص ٨٥ .

(٨) انظر تهذيب التهذيب ص ٣٤٤ جـ١ قال ابن وهب : (حججت سنة (١٤٨ هـ) وصائح يصيح لا يفتى الناس — إلى الخليفه — إلا مالك وعبد العزيز بن أبى سلمة) وكان صاحب سنة ، وقد كتب عنه أهل بغداد . نفس المرجع .

(٩) انظر تهذيب التهذيب ص ٢٨٠ جـ ٥ .

(١٠) انظر [illegible] ص [illegible] . (١١) انظر تذكرة الحفاظ ص ٢٠٧ جـ ١

ومن الجدير بالذكر أنه كان لعلى بن لهيعة (— ١٧٤ هـ) محدث الديار المصرية كتب كثيرة ، احترقت سنة (١٦٩ هـ) وكانت كتبه صحيحة [١] ، ولابن لهيعة صحيفة فى الحديث تعتبر من أقدم مجموعات الحديث ، وهى موجودة ضمن مجموعة أوراق البردى (بهيدلبرج [٢]) ، وكان لليث بن سعد (٩٤ — ١٧٥ هـ) شيخ الديار المصرية وعالمها تصانيف كثيرة [٣] .

ولدينا كثير من أخبار المصنفات والمصنفين إلا أن المقام يضيق بذكرها ، ويكفى دليلا على كثرة هذه المصنفات فى نهاية القرن الثانى ، أن على بن عبد الله المدينى (١٦١ — ٢٣٤هـ) صنف فى مختلف أبواب الحديث ورجاله وغريبه وشاذه وعلله نيفا ومائة مصنف ، ذكر منها محمد بن صالح الهاشمى نيفا وخمسة وعشرين مصنفا ، وكل كتاب فى عدة أجزاء بلغ بعضها ثلاثين جزءاً [٤] .

هكذا ساهم علماء المسلمين فى حفظ الحديث فى صدورهم وفى كتبهم ، وصدق على بن المدينى حين قال : نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة ، فلأهل المدينة ابن شهاب (— ١٢٤هـ) ، ولأهل مكة عمرو بن دينار (٤٦ — ١٢٦ هـ)[٥] ، ولأهل البصرة قتادة بن دعامة السدوسى (— ١١٧ هـ) ، ويحيى بن أبى كثير

(١) انظر تذكرة الحفاظ ص ٢٢٠ جـ ١ قال الامام أحمد : ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة . ويعود عدم احتجاج البخارى ومسلم به إلا فى المتابعات لاحتراق كتبه . انظر تذكرة الحفاظ ص ٢٢٠ جـ ١ .

(٢) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ١١٨ .

(٣) انظر تذكرة الحفاظ ص ٢٠٩ جـ ١ .

(٤) انظر الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٩٤ ، وليس فى هذا مبالغة ، لأن بعض الأجزاء لاتتجاوز وريقات . كما لا يستبعد هذا بالنسبة لابن المدينى إمام عصره الذى كان يجله الإمام أحمد ويحترمه لسمو مكانته وسعة علمه . انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٣١٩ .

(٥) كان عمدنا ثبتا قال فيه شعبة : ما رأيت أثبت فى الحديث منه انظر : تاريخ الإسلام الذهبى ص ١١٤ جـ ٥ وتهذيب التهذيب ص ٣٠ جـ ٨ .

(— ١٢٩ هـ)[١] ، ولأهل الكوفة أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعى (٣٣ — ١٢٧ هـ)[٢] ، وسليمان بن مهران الأعمش (٦١ — ١٤٨ هـ) . قال على : ثم صار علم هؤلاء الستة إلى أصحاب الأصناف[٣] .

* * *

(١) ذكر الرامهرمزى وفاته فى اليمامة سنة (١٣٢ هـ) . وما أثبته من تذكرة الحفاظ ص ١٢١ ج ١ ، وتهذيب التهذيب ص ٢٦٨ ج ١١ .

(٢) وهو من أعلام التابعين الثقات كان إمام الكوفة وشيخها فى عصره أدرك عليا رضى الله عنه ، ويروى أنه سمع من (٣٨) صحابيا ، انظر تاريخ الإسلام للذهبى ص ١١٦ ج ٥ ، وتهذيب التهذيب ص ٦٣ ج ٨ .

(٣) انظر المحدث الفاصل ص ١٥٦ : آ — ب ، وتقدمة الجرح والتعديل ص ٣٤ و ١٢٩ .

الفصل الثالث

آراء في التدوين ..

١ — رأى الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ — ١٣٥٤ هـ) :

قال الإمام محمد رشيد رضا : (لعل أول من كتب الحديث وغيره من التابعين فى القرن الأول ، وجعل ما كتبه مصنفاً مجموعا هو خالد بن معدان الحمصى ، روى عنه أنه لقى سبعين صحابياً قال فى تذكرة الحفاظ وقال بحير : ما رأيت أحدا ألزم للعلم منه ، وكان علمه فى مصحف له أزرار وعرا) ثم قال : فخالد بن معدان جمع علمه فى مصنف واحد جعل له وقاية لها أزرار وعرا تمسكها لئلا يقع شىء من تلك الصحف ، وكان ذلك فى القرن الأول ، فإنه مات سنة ١٠٣ هـ أو سنة ١٠٤ هـ ، ولكن المشهور أن أول من كتب الحديث ابن شهاب الزهرى القرشى ، ولعل سبب ذلك أخذ أمراء بنى أمية عنه[1] .)

بعد أن رأينا موقف العلماء من الكتابة خلال القرن الأول الهجرى وفى النصف الأول من القرن الثانى ، وبعد أن وجدنا أدلة علمية قاطعة تثبت وقوع التدوين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عصر الصحابة والتابعين — بعد هذا لا يمكننا أن نقبل رأى الأستاذ الامام ، وذلك من ناحيتين :

---

(١) مجلة المنار ص ٧٥٤ ج ١٠ .

الأولى إذا اعتبرنا التـــــدوين الشخصى الخاص بكل عالم — فإن كثيرين من الصحابة والتابعين سبقوا خالدا فى هذا المضمار ، وحافظوا على ما كتبوه ، فابن عمرو حفظ صحفه فى صنـدوق له حلق ، وغـيره فى كراريس ودفاتر ، كهمام بن منبه وابن شهاب ، فمجرد وجود علم خالد ابن معدان فى مصحف له أزرار لا يكفى لأن يكون أول من دوّن الحديث فى عصره .

والناحية الثانية إذا اعتبرنا التدوين الرسمى للحديث استجابة لرغبة عمر بن عبد العزيز فقد سبق خالدا إلى التدوين أبو بـكر بن حزم وابن شهاب الزهرى ، وقد ثبت أن ابن شهاب كتب لعمر الحديث فى دفاتر وزعت على كل أرض له عليها سلطان ، فخالد لم يكن أول من صنف ، سواء أ كان هذا التصنيف خاصا أم رسميا . فهنالك من سبقه فى جمع الحديث ، ويمكننا أن نعتبر صحف خالد من أولى الصحف التى ضمت علمه فى ذلك القرن .

وإذا كان المشهور أن ابن شهاب الزهرى أول من كتب الحديث — فإن هذا محمول على تنفيذه أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، لا لأن أمراء بنى أمية أخذوا عنه ، لأن أخذ الأمراء عنه لا يؤثر فى الأدلة الأخرى التى تثبت استجابته لأمر الخليفة وتدوينه الحـديث فى دفاتر . وقد أسلفنا أنه كان قد كتب كثيراً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أثناء طلبه العلم . وهـذا يدل على أسبقية ابن شهاب على غيره فى التدوين ومع هذا فهنالك من دون قبله — بشكل غير رسمى — وحفظ علمه فى صحف واعتنى بصحفه وحرص عليها من الضياع . فقد ثبت لدينا ممـا سبق أن كثيراً قبل ابن شهاب وقبل خالد بن معدان كتبوا الحديث وحفظوه فى كل ما تيسر

لديهم من وسائل ، رغبة منهم فى حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الضياع أو التحريف .

٢ — رأى الشيعة فى تدوين الحديث :

(أ) قال المرجع الدينى الأكبر السيد حسن الصدر (١٢٧٢ — ١٣٥٤هـ):

(وقد وهم الحافظ الجلال السيوطى فى كتابه تدريب الراوى ، حيث زعم أن ابتداء تدوين الحديث وقع فى رأس المائة . قال : وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع فى رأس المائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز بأمره ، فى صحيح البخارى فى أبواب العلم : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم . . . قال فى فتح البارى ، يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوى ، ثم أفاد أن أول من دونه بأمر عمر بن عبد العزيز ابن شهاب انتهى مافى تدريب الراوى . قلت « السيد حسن الصدر » : كانت خلافة عمر ابن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر مبدؤها عاشر صفر سنة ثمان أو تسع وتسعين ومات سنة إحدى ومائة لخمس أو لست مضين وقيل لعشر بقين من رجب ، ولم يؤرخ زمان أمره ولا نقل ناقل امتثال أمره بتدوين الحديث فى زمانه ، والذى ذكره الحافظ ابن حجر من باب الحدس والاعتبار ، لا عن نقل العمل بأمره بالعيان ، ولو كان له عند أهل العلم بالحديث أثر بالعيان لما نصوا أن الإفراد لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على رأس المائتين ، كما اعترف به شيخ الإسلام وغيره . . . قال « ابن حجر » : إلى أن رأى بعض الأئمة أن تفرد أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، وذلك فى رأس المائتين وعدد جماعة . . . وكذلك الحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ نص أن أول زمن التصنيف وتدوين السنن وتأليف الفروع — بعد انقراض دولة بنى أمية وتحول الدولة إلى بنى

العباس . . . ولا يقاس بالذهبي غيره في الخبرة بالتواريخ في أمثال هذه الأمور ، فلم يذكر ما ذكره السيوطي ، بل كل من كتب في الأوائل من علماء السنة لم يذكره . اللهم إلا أن يقال باستبعاد عدم الأخذ بقول مثل عمر بن عبد العزيز فلعله جمع بعده فلا يكون الحكم بجمعه في رأس المائة من القول السديد المحقق ، عصمنا الله تعالى من التسرع في القول[١]) .

أقول إن ما ذكره السيوطي ليس وهما بل حقيقة علمية ، كما تبين لنا من البحث

وأما قصر مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ، وعدم تأريخ زمن أمره فإنه لاينافي استجابة العلماء لأمر الخليفة . وأما أنه لم ينقل هذا ناقل فهذا حكم يناقض الدليل ، فقد كثر الناقلون ، ونص ابن عبد البر على أن ابن شهاب امتثل لأمر الخليفة وكتب الحديث في دفاتر ، وبعث الخليفة إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا[٢] ، ولم يكن ما ذكره ابن حجر من باب الحدس والتخمين ، ثم إن ما ذكره علماء الحديث من أن إفراد تدوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على رأس المائتين — لا ينافي قط تدوينه استجابة لأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ونحن لانشك في أن بعض المدونات الأولى . في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عصر الصحابة كانت خالية من فتاوى الصحابة ، وأقوى دليل على هذا الصحيفة الصادقة ، والصحيفة الصحيحة ، وإن كان بعض المصنفين قد كتب عمل الصحابة ، وفتاواهم إلى جانب الحديث ، فهذا لاينافي كونهم دونوا الحديث على رأس المائة الأولى وقبلها .

---

(١) تأسيس علوم الشيعة ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ ج ١ .

واستشهاده بما ذكره الحافظ الذهبي فى تذكرة الحفاظ لايجدى نفعاً ، لأن الحافظ الذهبي لخص الحالة فى القرن الأول ، ولم يدرس التدوين دراسة موضوعية تفصيلية ، ومع هذا نراه يذكر فى تراجم من صنف من العلماء أنهم أول من صنفوا فى بلادهم . وليس من المفروض على الذهبي أن يفصل فى التدوين لأن تذكرته فى رجال الحديث ، لا فى علم الحديث ومصطلحه .

وأما أن أحداً من الأوائل لذين كتبوا فى الحديث وعلومه — لم يذكر ماذكره الجلال السيوطى ، فهذا مردود بما كشف عنه بحثنا ، فقد ذكر ذلك الرامهرمزى ، وبين سبب كراهة من كره الكتابة فى الصدر الأول ، وجمع بين أحاديث السماح بالكتابة والنهى عنها . وإذا كان الرامهرمزى لم ينقل إلينا النص كالسيوطى حرفياً فقد ذكر مايفهم منه أن بعض العلماء كانوا قد دوّنوا فى القرن الأول ،[1] كما بين اهتمام عمر بن عبد العزيز بنشر السنة والمحافظة عليها[2] ، ووضع الخطيب البغدادى كتابه (تقييد العلم) لعرض سير التدوين فى العصر الأول ، وبين كثيراً مما خفى على الناس ، وأثبت أن بعض طلاب العلم وأهله قد مارسوا التدوين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده . وروى أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ — ٢٢٤ هـ) بسنده عن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى ، قال : (لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصدقات وكتاب عمر بن الخطاب . . . . فنسخا له[3]) ، فما أظن بعد هذا أن يدعى إنسان أن أمر عمر بن عبد العزيز لم ينفذ أو لم يؤخذ به ، فما ذهب إليه علماء

(١) انظر المحدث الفاصل ص ٧١ : آ ـ ٧١ : ب .
(٢) انظر المرجع السابق ص ١٥٣ : آ
(٣) الأموال ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩

الحديث من أن ابتداء تدوين الحديث وقع فى رأس المائة الأولى ليس من باب الحدس والتسرع بالقول . ويحمل قولهم هذا على التدوين الرسمى الذى تبنته الدولة ، أما التدوين الشخصى والفردى فكان منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بعد ما ذكره السيد حسن الصدر قال : (إذا عرفت هذا فاعلم أن الشيعة أول من تقدم فى جمع الآثار والأخبار ، فى عصر خلفاء النبى المختار عليه وعليهم الصلاة والسلام ، اقتدوا بإمامهم أمير المؤمنين عليه السلام) . ثم ذكر كتاباً لعلى رضى الله عنه كان عظيما مدرجا ، وذكر صحيفته المعلقة بسيفه ، ثم ذكر كتابا لأبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه « كتاب السنن والأحكام والقضايا » وقد توفى أبو رافع فى أول خلافة على رضى الله عنه ، قال السيد حسن الصدر : (وأول خلافة على أمير المؤمنين سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، فلا أقدم من أبى رافع فى التأليف بالضرورة[1]) .

أقول : إذا صح هذا الخبر فإن أبا رافع يكون ممن دون فى عصر الصحابة ، وقد سبقه عبد الله بن عمرو الذى كتب فى عهده صلى الله عليه وسلم . وإذا صح هذا الخبر وكان كتابه مرتبا على الأبواب : (الصلاة والصيام والحج والزكاة والقضايا)

---

(١) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٢٧٩ — ٢٨٠ . وقد نقل عن الشيخ أبى العباس النجاشى ما ذكره عن أبى رافع . ثم قال السيد حسن الصدر : وأول من صنف فى الآثار مولانا أبو عبد الله سلمان الفارسى (ر) . . . وأول من صنف الحديث والآثار بعد المؤمنين أبو ذر الغفارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وله كتاب الخطبة يشرح فيها الأمور بعد النبى صلى الله عليه وسلم ذكره الشيخ أبو جعفر الطوسى فى الفهرست . ثم يذكر كتابا لعبيد الله بن أبى رافع فى قضايا أمير المؤمنين وكتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان من الصحابة . ثم ذكر بعض أخبار كتب أشخاص طعن فيهم أهل السنة كالحارث بن عبد الله الأعور الهمدانى ، أو أخبار كتب لم تثبت عند أهل السنة . انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٢٨٢ وما بعدها .

كما ذكر السيد حسن الصدر ، كان لأبي رافع شرف الأولوية في التأليف لا في التدوين ، وصحة هذا لاتحملنا على أن ننفي ماثبت تاريخيا من أخبار التدوين في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز .

(ب) مادمنا في موضوع الشيعة والتدوين ، فلا بد من أن نتناول بالبحث أصلا من أصول الزيدية ، يعود تدوينه إلى مطالع القرن الثاني ، وهذا الأصل هو « مجموع الإمام زيد » ونتناول هذا الكتاب في ثلاث نقاط ، وهي التعريف بصاحب المجموع ، والتعريف براويه ، ثم المجموع ذاته .

١ — الإمام زيد : هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعا . ولد الإمام زيد حول سنة (٨٠ هـ) ، ونشأ في أسرة معروفة بالعلم والجهاد ، فقد تلقى العلم على أبيه ثم أخذ عن أخيه محمد الباقر الذي شهد له العلماء بالمنزلة العلمية الرفيعة ، كما سمع من كبار التابعين في المدينة وكان يتنقل بين الحجاز والعراق ، ونضج الإمام زيد حتى شهد أهل العلم بفضله وعلمه ، سئل جعفر الصادق عن عمه زيد ، فقال : كان والله أقرأنا لكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله ، وأوصلنا الرحم ، والله ماترِكَ فينا لدنيا ولا لآخرة مثله . وقال الشعبي : ماولدت النساء أفضل من زيد ابن علي ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد ، وسئل الباقر عن أخيه زيد ، فقال : إن زيدا أعطي من العلم بسطة [1] .

ولزيد مع هشام بن عبد الملك وولاته أخبار كثيرة تذكر إحراجهم له واضطراره إلى الخروج على الخليفة ، ومن هذا ما ذكره ابن العماد الحنبلي أنه دخل يوما على هشام بن عبد الملك ، فقال له : (أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة

---

(١) انظر مقدمة مسند زيد وترجمته ص ٢ ومابعدها .

وأنت ابن أمة ! فأجابه بقوله : إن الأمهات لايقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أم اسماعيل أمة لأم اسحاق ، صلى الله عليهما ، فلم يمنعه ذلك من أن ابتعثه الله نبياً ، وجعله للعرب أبا ، وأخرج من صلبه خير البشر محمداً صلى الله عليهم وسلم ! أفتقول لى كذا وأنا ابن فاطمة وابن على [١] ! ؟) وقام ينشد شعراً وخرج فى الكوفة وبايعه من أهلها خمسة عشر ألف رجل ، ثم تفرقوا عنه ليلة خرج سوى ثلاثمائة رجل ، ولما قتل أرسل برأسه إلى الشام ثم إلى المدينة ، وكان ذلك سنة (١٢٢ [٢]) هـ .

وللإمام زيد المسند المسمى المجموع الفقهى . وله المجموع الحديثى ، وقد جمعهما [٣] عمرو بن خالد الواسطى . وله أيضاً تفسير الغريب من القرآن ، وتثبيت الإمامة ومنسك الحج [٤] .

٢ — أما راوى المجموع ، فهو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى الهاشمى بالولاء الكوفى ، روى مجموعى الإمام زيد الحديثى والفقهى ، قال : صحبت الإمام زيدا فما أخذت عنه الحديث إلا وقد سمعته مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا أو خمسا أو أكثر من ذلك ، وما رأيت هاشمياً مثل زيد بن على ، فلذلك اخترت صحبته على جميع الناس [٥] . وتوفى بعد العشر الخامسة من المائة الثانية من الهجرة .

وقد اختلف فى أبى خالد ، فقبل الزيدية روايته ، وفى هذا يقول القاسم

(١) شذرات الذهب ص١٥٧ جـ ١ ، وانظر : الإمام زيد لأبى زهرة ص٤٢ ــ ٦٦ .
(٢) انظر شذرات الذهب ص ١٥٧ جـ ١ ، والإمام زيد ص ٤٢ ــ ٦٦ .
(٣) انظر الإمام زيد لأبى زهرة ص ٢٣٢ .
(٤) انظر مقدمة مسند زيد (المجموع) صفحة ٤ ــ ٥ .
(٥) انظر المرجع السابق ص ٢٦ والروض النضير ص ٢٨ جـ ١

ابن عبد العزيز : (وعمرو بن خالد الواسطى أبو خالد ، حدث عنه الثقات ، وهو كثير الملازمة لزيد بن على عليه السلام ، وهو الذى أخذ عنه أكثر الزيدية مذهب زيد بن على عليهما السلام ، ورجحوا روايته على رواية غيره[(١)] .) وجرحه الإمامية[(٢)] وغيرهم . وقد فند شارح المجموع طعون الجارحين لعمرو وبين أقوال العلماء فيه ، وانتهى إلى أن كل ما وجه إليه لا يؤثر فى عدالته[(٣)] ، وكذلك فند فضيلة الأستاذ محمد أبو زهرة الطعون وناقشها ووازن آراء العلماء ، وانتهى إلى أن أوجه قبول رواية أبى خالد أرجح من أوجه الطعن[(٤)] .

٣ — المجموع : واختلف فى المجموع ذاته : هل وضعه الإمام زيد ورتبه كما هو عليه الآن وأملاه على طلابه أم أن هذا عمل أبى خالد ؟ فأبو خالد نفسه يجيب إبراهيم ابن الزبرقان الذى سأله : كيف سمعت هذا الكتاب عن زيد ابن على ؟ فيقول : (سمعته منه فى كتاب معه قد وطأه وجمعه ، فما بقى من أصحاب زيد بن على ممن سمعه معى إلا قتل غيرى[(٥)]) إلا أن الإمام محمد بن المطهر فى أول شرحه المنهاج على المجموع يقول : (وكان مذهبه ـ يعنى زيد بن على ـ عزيزاً ، لقلة ضبطه فى الكتاب الجامع إلا ما عنى بجمعه أبو خالد ، فإنه جمع مجموعين لطيفين ، أحدهما فى الأخبار ، والآخر فى الفقه[(٦)]) ويمكن الجمع بين

---

(١) الروض النضير ص ٢٨ ج ١ .

(٢) الامام زيد لأبى زهرة ص ٢٣٣ .

(٣) انظر الروض النضير ص ٢٥ ـ ٤٧ ج ١ وشارح المجموع العلامة شرف الدين بن الحيمى اليمنى ، وكان عرضه لذلك فيما تجدر مراجعته .

(٤) انظر الإمام زيد لأبى زهرة ص ٢٣٥ ـ ٢٥٨ .

(٥) الروض النضير ص ٢٨ ج ١ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٢ ج ١ .

الخبرين بأن أبا خالد قد كتب عن الإمام زيد الحديث والفقه وسمع منه ، فرتب ذلك فى مجموعيه . ولا نرى هذا بعيداً قط ، لأن أبا خالد صحب زيدا بالمدينة قبل قدومه الكوفة خمس سنين ، كان يقيم عنده فى كل سنة أشهرا كلما حج[1] ، وكان عصر الامام زيد عصر طلائع التصنيف ، ومع هذا لا يمكننا أن نقطع بأن المجموع كما هو عليه الآن جمعاً وترتيباً من تصنيف الإمام زيد ، لأن الدارس لمتن المجموع يرى كثيراً من الحديث يرويه أبو خالد قائلا (حدثنى زيد بن على) ، وفى الفقه يقول : قال زيد بن على ، مما يدل على أن أبا خالد تلقى هذا مشافهة عن الإمام زيد . وهذا لا يمنع أن يحصل الإمام بعض علمه فى كتاب . سواء أملى على طلابه أم لم يمل ، يرجح عندى أن أبا خالد كتب عن الإمام الحديث والفقه ، ثم رتب ذلك فى مجموعين وكل هذا لا يؤثر فى صحة نسبة المجموع إلى زيد بن على .

وعلى هذا يكون المجموع من أهم الوثائق التاريخية التى تثبت ابتداء التصنيف والتأليف فى أوائل القرن الثانى الهجرى . بعد أن استنتجنا هذا من خلال عرضنا لمصنفات ومجاميع العلماء من غير أن نرى نموذجا ماديا يمثل أولى تلك المصنفات . اللهم إلا موطأ الإمام مالك الذى انتهى من تأليفه قبل منتصف القرن الهجرى الثانى ، فيكون المجموع قد صنف قبله بنحو ثلاثين سنة .

من الواضح أن المجموع المطبوع جمع بين الفقه والحديث ، فهو يضم المجموعين الفقهى والحديثى ولكنهما ليسا منفصلين ، فنرى أبا خالد يروى فى الباب الواحد أحاديث مرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وآثاراً عن على رضى الله عنه ، وفقه الامام زيد رحمه الله .

---

(١) أنظر الروض النضير ص ٢٨ جـ ١

وقد ضم المجموع (٢٢٨) حديثاً مرفوعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن الأخبار العلوية (٣٢٠) خبراً ، وعن الحسين خبرين فقط[1] .

وقد رتب المجموع ترتيباً فقهياً ، ففيه كتاب الطهارة ، وكتاب الصلاه ، وكتاب الجنائز ، وكتاب الزكاة ، وكتاب الصيام ، وكتاب الحج ، وكتاب البيوع . . . ورتب كل كتاب على أبواب مختلفة ، ويفتتح كل باب بحديث الباب بسنده المرفوع إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أو الموقوف على الإمام على رضى الله عنه . وسأعرض بعض النماذج لنقف على حقيقة المجموع .

(ا) من باب ما ينبغى أن يجتنب فى الصلاة :

قال : (حدثنى زيد بن على عن أبيه عن جده عن على عليه السلام قال : أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « أما هذا فلو خشع قلبه لخشعت جوارحه » ، وقال زيد بن على عليه السلام : إذا دخلت فى الصلاة فلا تلتفت يمينا ولا شمالا ، ولا تعبث بالحصى ، ولا ترفع أصابعك ولا تنقض أناملك ، ولا تمسح جبهتك حتى تفرغ من الصلاة[2]) .

(ب) من كتاب البيوع ، باب الكسب من اليد :

قال : (حدثنى زيد بن على عن أبيه عن جده عن على عليه السلام قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، أى الكسب أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور ، فإن الله يحب المؤمن المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل » .

---

(١) انظر مقدمة مسند زيد ص ٩ .   (٢) مسند الامام زيد ص ٣٦ ـ ٣٧ .

حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام ، قال : من طلب الدنيا حلالا تعطفاً على والد أو ولد أو زوجة ، بعثه الله تعالى ووجهه على صورة القمر ليلة البدر[1]) .

٣ – رأى في التدوين الرسمي :

لقد تبين لي أثناء البحث في موضوع تدوين السنة ، وخاصة في دراسة رجال الحديث في عصر الصحابة والتابعين – أن أمير مصر عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي (– ٨٥ هـ) . قد حاول جمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى هذا إمام الديار المصرية ومحدثها الليث بن سعد ، فقال : (حدثني يزيد بن أبي حبيب أن عبد العزيز بن مروان كتب الى كثير بن مرة الحضرمي – وكان قد أدرك بحمص سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال ليث : وكان يسمى الجند المقدم ، قال : فكتب إليه أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أحاديثهم إلا حديث أبي هريرة فإنه عندنا[2]) ، لم يطلب حديث أبي هريرة لأنه كان عنده وكان قد سمعه عبد العزيز بن مروان من أبي هريرة [3] . لقد طلب أمير مصر كتابة حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام من إمام حمص وعالمها الذي كان طلابا للعلم حافظا ثقة[4] . وقد كان هذا الطلب أثناء امارته على مصر بين سنة (٦٥ – ٨٥) هجرية ، ويمكننا أن نعد هذا بحد

---

(١) مسند الإمام زيد ص ١٠٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ص ١٥٧ قسم ٢ ج ٧ وتهذيب التهذيب ص ٤٢٩ ج ٨ وانظر سير أعلام النبلاء مخطوط ص ١٤٥ قسم ٢ ج ٤ .

(٣) انظر تهذيب التهذيب ص ٣٥٦ ج ٦ .

(٤) انظر تذكرة الحفاظ ص ٤٩ ج ١ .

أقرب إلى الحقيقة إذا عرفنا أن كثير بن مرة توفى بين سنة (٧٠ و ٨٠[(١)]) للهجرة ، فلو فرضنا أنه توفى سنة (٧٥ هـ) فمعنى هذا أن طلب الأمير كان قبل هذه السنة ، والراجح عندى أن طلب الأمير عبد العزيز ، كان فى السنين الأولى من إمارته ، لما عرف عنه من حب للعلم وأهله ، وتفان فى خدمة الدين[(٢)] . إلا أن المصادر لم تخبرنا عن امتثال كثير بن مرة للأمير . فنقف أمام هذا الخبر التاريخى متسائلين : ترى هل كتب كثير للأمير ماطلب منه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وإذا كتب إليه فما مقدار ما كتبه ؟ وعن أى الصحابة كتب إليه ؟ ثم إلى من آلت تلك الصحف أو الدفاتر المدونة ؟ كل هذه أسئلة تعرض أمامنا ، وتحتاج إلى بحث وتنقيب ، وربما يكشف لنا التاريخ عن خبايا تراثنا الإسلامى العظيم . نجيب عن هذه الأسئلة على ضوء مالدينا من أخبار قليلة .

إن مانعرفه من عناية هؤلاء بالحديث يرجح عندنا أن يستجيب كثير بن مرة لطلب الأمير ، ولو ظن الأمير عبد العزيز امتناع عالم حمص عن إجابته ما كتب إليه ، مما يرجح عندى أن كثيراً تلقى رسالة الأمير وأجابه إلى طلبه ، لما عرف عن كثير من نشاط علمى عظيم ، ومن الصعب فى هذا المجال أن نقدر مقدار ما كتب كثير ، لأن المراجع لم تنص على شيء من هذا[(٣)] ، فأرجو

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ص ٤٢٩ ج ٨ .

(٢) انظر النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ص ١٧١ ، ١٧٤ ج ١ ، وولاة مصر للكندى ص ٤٩ .

(٣) لأن التاريخ الأموى دون فى عهد الدولة العباسية وقد اهتم المؤرخون بالحوادث الكبرى وبالخلفاء والخطوط العريضة من حياة الأمراء . وكانت كثير من مزايا الأمويين تطمس أو تصغر تمشياً مع سياسة العباسيين الذين لايسرهم التحدث بمفاخر من قبلهم . انظر : أضواء على التاريخ الإسلامى ص ٨٥ . ونحن لانشك بوجود مؤرخين منصفين نرجو أن نجد عندهم فيما بعد مايروى غليلنا فى هذه النقطة .

من الله أن أوفق فيما بعد للكشف عن ذلك وإيضاحه بما يكفل لنا الحكم العلمى الصحيح .

ونقول الآن بعد هذا الخبر : إذا ثبتت استجابة كثير بن مرة لطلب أمير مصر . فيعنى هذا أن بعض الحديث النبوى قد دون رسمياً فى منتصف العقد الهجرى الثامن قبل انقضاء القرن الأول . وعلى أية حال ، فإن اهتمام أمير مصر بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام وتدوينه يزيدنا ثقة بأن التدوين قد سار جنباً إلى جنب مع الحفظ ، ولم يتأخر قط إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فيكون شرف المساهمة فى تدوين الحديث ، قد كلل الوالد الأمير والابن الخليفة البار ، ويكون لهما جميعاً شرف العمل لحفظ الحديث وتدوينه رسمياً .

وأنا بهذه النتيجة لا أريد أن أخالف ما اشتهر عند أئمة هذا العلم من أن تدوين الحديث النبوى كان على رأس المائة الأولى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، بل أضع يدى على مفتاح بحث تاريخى له أهميته فى تاريخ تدوين الحديث ، سواء أخالف هذا المشهور أم وافقه ، وهذا المفتاح قد طوى فى بطون تراثنا الزاخر ، ينتظر من يتفرغ ليكشف عنه ، فنحن فى هذا لسنا بدعا ، ولا نأتى بشيء جديد سوى أننا ننفض غبار الماضى عن جواهرنا المكنونة ، ونحاول أن نسلكها فى عقد يصور لنا الحقيقة التاريخية .

٤ — المستشرقون ورأيهم فى تدوين الحديث :

لقد عرفنا أن المسلمين حفظوا حديث النبى صلى الله وسلم فى صدورهم وصحفهم ، فساهمت الذاكرة والأقلام والصحف والدفاتر فى حفظ السنة المطهرة ، وسار الحفظ فى الصدور وفى الصحف جنباً إلى جنب فى سبيل هذه الغاية ، ورأينا مراحل التدوين الفردى والرسمى ، وثبت لنا وقوع التدوين فى عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم وفى عصر الصحابة والتابعين ، بأدلة قاطعة لا يرقى إليها الشك ، ولا يعتريها الظن . وعرفنا أن ضرورة حفظ الحديث لم تنتظر خلافة عمر بن عبد العزيز وإذنه ، بل دعت إلى تدوينه قبله بكثير ، وكان لعمر بن عبد العزيز شرف مساهمة الدولة فى تبنى هذا التدوين والإشراف عليه ، وتحريك همم العلماء للجمع والتصنيف ، الذى ظهرت بوادره فى النصف الأول من القرن الثانى ، ونضجت ثماره فى المصنفات الكثيرة التى أخرجها أوائل المصنفين فى مختلف بلاد الدولة الإسلامية آنذاك .

بعد هذا لن نؤخذ بما وصل إليه المستشرقون وأعلنوه من أن السنة . قد دونت فى عصر مبكر . ولن نقع فيما نصبه بعضهم من شراك خلف بحوثهم ، وإن ظهرت بعض أبحاثهم فى ثوب علمى نقى ، فقد كتب جولد تسيهر فصلا خاصاً حول كتابة الحديث فى كتابه « دراسات إسلامية » أتى فيه بأدلة كثيرة على تدوين الحديث فى أول القرن الهجرى الثانى ، وكان فى الفصل الأول من كتابه (قد سرد طائفة من الأخبار ، تشير إلى بعض الصحف التى دونت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه حاطها بكثير من التشكك فى أمرها ، والريبة فى صحتها ، وقد رمى بهذا إلى غرضين ، أحدهما : إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها فى الصدور ، لتعول الناس منذ القرن الهجرى الثانى على الكتابة ، والآخر وصم السنة كلها بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين لها ، الذين لم يجمعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم ، ويعبر عن آرائهم ووجهات نظرهم فى الحياة . . .

وحاول المستشرق « سوفاجيه » فى كتابة « الحديث عند العرب » أن يفند المعتقد الخطأ عن وصول السنة طريق المشافهة وحدها ، وجمع أدلة كثيرة

على تدوين الأحاديث والتعويل على هذا التدوين فى عصر مبكر يبدأ أيضاً فى مطالع القرن الهجرى الثانى ، وليس فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وغايته لاتختلف فى شىء عن غاية جولد تسيهر)[١] .

ويقول الدكتور صبحى الصالح : (وأما « دوزى » فلعله يخدع برأيه المعتدل كثيراً من علمائنا فضلا عن أوساط المتعلمين فينا ، فقد كان هذا المستشرق يعترف بصحة قسم كبير من السنة النبوية التى حفظت فى الصدور ، ودونت ، فى الكتب بدقة بالغة ، وعناية لانظير لها . « وما كان يعجب لكثير من الموضوعات والمكذوبات تتخلل كتب الحديث — فتلك كما يقول طبيعة الأشياء نفسها — بل للكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التى لايرقى إليها الشك ، (ونصف صحيح البخارى على الأقل جدير بهـذا الوصف عند أشد المحـدثين غلوا فى النقد) ، مع أنها[٢] تشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها »[٣] . فلم يكن غرض هذا المستشرق خالصاً للعلم والبحث المجرد حين مال إلى الاعتراف بصحة ذلك النصيب الكبير من السنة ، وإنما كان يفكر أولا وآخراً فيما اشتملت عليه هذه السنة الصحيحة من نظرات مستقلة فى الكون والحياة والإنسان، وهى نظرات لايدرأ عنها استقلالها النقد والتجريح، لأنها لم تنبثق من العقل الغربى المعجز، ولم تصور حياة الغرب الطليقة من كل قيد[٤] !) .

---

(١) انظر هذا البحث فى علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص ٢٣ — ٣٠ وما أشرنا إليه فى الصفحة ٢٤ — ٢٥ .

(٢) أى الروايات الصحيحة .

(٣) أشار الدكتور صبحى الصالح فى هامش الصفحة ٢٦ إلى أن عبارة دوزى فى الأصل أوقح من أن يوردها على حالها وأحال على الأصل بالفرنسية .

(٤) علوم الحديث ومصطلحه ص ٢٦ .

وعثر المستشرق (شبرنجر) على كتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادى فوجد فيه شواهد وأخباراً تدل على تدوين المسلمين للحديث فى عصر مبكر ، فكتب مقالا حول ماوجده .

واطلع (جولد تسيهر) على ما كتبه سلفه (شبرنجر) وأيد فكرة كتابة المسلمين للحديث فى عصر مبكر ، إلا أنه (تأمل فى الأخبار التى عرضها سلفه « شبرنجر » نقلا عن الخطيب البغدادى وغيره ، فوجدها تارة تقول بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أجاز كتابة العلم ، وطورا تدعى بأنه نهى عنها ، وتذكر مرة أن الصحابة حضوا عليها ، ثم لا تلبث أن تروى كراهتهم لها ، وتَعرضَ كَتْبَ بعض التابعين للعلم ، ثم تذكر استنكاف بعضهم الآخر — رأى ذلك فظن بهذه الأخبار سوءاً ، وأراد أن يرى خلالها يد الوضع والتزوير ، فتصور حزبين متناضلين ، اتخذا من هذه الأخبار سلاحاً ، يذود كل منهما به عن رأيه ، ويدفع خصمه ، فقال : إن أهل الرأى — الذين اعتمدوا فى وضع فروع الشريعة على عقلهم ، وأهملوا شأن حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) — كان من حججهم أن الحديث لم يكتب دهراً طويلا ، فغابت معالمه ، وتشتت أمره ، وأيدوا رأيهم بأخبار اختلقوها ، تثبت أنه لم يكتب ، ولم يقف خصومهم « أهل الحديث » واجمين ، بل فعلوا فعلتهم واختلقوا الأخبار تأييدا لقولهم ، فنسبوا إلى الرسول أحاديث فى إباحة الكتابة [1]) .

هكذا رأى جولد تسيهر أهل الرأى يدعون عدم كتابة الحديث ، فيضعون من الأخبار مايثبت دعواهم ، وأهل الحديث يرون جواز تقييد العلم ، فيضعون

---

(١) مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥١ السنة السابعة الصفحة ٢٢ — ٢٣ — من مقالة أستاذنا الدكتور يوسف العش « نشأة تدوين العلم فى الإسلام » .

مايثبت دعواهم ، ليحتجوا بصحة مالديهم من أحاديث فى خلافاتهم الفقهية ، أراد جولد زيهر أن يصور علماء الأمـة ومفـكريها ، حزبين متعصبين لآرائهم ، يستجيزون الـكذب فى سبيل ذلك !! فساء ما تصوره وبئس ما انتهى إليه .

وقد قيض الله لـكتاب « تقييد العلم » أن ينشر فى دمشق ، ويحقق تحقيقاً علمياً دقيقاً ، على يدى أستاذنا الدكتور يوسف العش ، الذى درس أخباره دراسة عميقة ، ثم قدم للـكتاب المذكور بتصدير علمى قيم ، كشف ، فيه عن خطإ جولد تسيهر فى رأيه (حين قال : إن من ادعى عدم جواز الـكتابة هم أهل الرأى ، وأن مخالفيهم هم من أهل الحديث — « قال الدكتور العش » — : فالخلاف لم يكن بين هاتين الفئتين ، لأن من أهل الرأى من امتنع عن الـكتابة كعيسى بن يونس (— ١٨٧ هـ) وحماد بن زيد (— ١٧٩ هـ) وعبد الله إدريس (— ١٩٢ هـ) ، وسفيان الثورى (— ١٦١ هـ) ، وبينهم من أقرها كحماد بن سلمة (— ١٦٧ هـ) ، والليث بن سعد (— ١٧٥ هـ) ، وزائدة بن قدامة (— ١٦١ هـ) ويحيى بن اليمان (— ١٨٩ هـ) ، وغيرهم . ومن المحدثين من كره الـكتابة كابن علية (— ٢٠٠ هـ) وهشيم بن بشير (— ١٨٣ هـ) ، وعاصم بن ضمرة (— ١٧٤ هـ) وغيرهم ، ومنهم من أجازها كبقية الـكلاعى (— ١٩٧ هـ) وعكرمة بن عمار (— ١٥٩ هـ) ، ومالك ابن أنس (— ١٧٩ هـ) وغيرهم[1]) .

بهذه البراهين القوية نقض الدكتور العش رأى جولد زيهر وقوض

---

(١) تقييد العلم ص ٢١ــ٢٢ وانظر مقالة الدكتور العش فى مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٠٣ السنة السابعة الصفحة : ٩ — ١٠ .

كل ما بناه على رأيه من صور وهمية ، وبين بعد البحث والتأمل (أن ليس من أوصاف مشتركة توحد بين أصحاب إحدى الطائفتين ، فليس الفريقان حزبين اتفق أفرادهما فى الرأى ، واستعدوا لخوض المعركة متضامنين ، يناصر بعضهم بعضا ، إنما تمسكوا برأيهم عن عقيدة نفسية ، أو عن ميول شخصية ، أو عن ذوق خاص ، أو عن عادة مستحكمة ، وعندنا أن الطائفتين المتخاصمتين متفقتان بالغاية ، ولو أنهما تشاحنتا فى القول ، فكلتاهما تبغى الدفاع عن العلم والتقدم به [١] .)

بعد تلك الأخبار عن التدوين ، وحرص الأمة على سلامة الحديث النبوى ، لا يمكننا أن نسلم بما ذهب إليه المستشرقون ، وخاصة بعد أن ظهر أمرهم على ضوء ما بيناه ، فالسنة حفظت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصدور ، وقيد بعضها فى الصحف ، وكانت محل اعتناء المسلمين فى مختلف عصورهم ، فتناقلوها جيلا عن جيل حفظا ودراسة بالمشافهة والكتابة ، واجتهدوا وسعهم لحفظ الحديث بأسانيده فى مصنفات ومسانيد تكفل لأهل العلم معرفة القوى من الضعيف ، خشية تسرب الكذب إلى حديثه صلى الله عليه وسلم ، ثم اجتهد كبار العلماء فى جمع الحديث الصحيح على أسلم قواعد التثبت العلمى ، فرحلوا فى طلب ذلك ، وسمعوا بأنفسهم ، وتثبتوا وسعهم ، وكتبوا بأيديهم ، فظهرت الكتب المجردة من الضعيف وأجمعت الأمة الإسلامية — التى فهمت الإسلام واتخذته سبيلها فى مختلف وجوه حياتها — على صحة (صحيح البخارى) و (صحيح مسلم) ، وإذا اعترف المستشرقون ببعض الحقيقة العلمية ، وأقروا جانبا مما أثبتته المصادر الإسلامية ، فلا يجوز لنا على أى حال أن نقبل ماذهبوا إليه من طعن فى

---

(١) مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥٣ السنة السابعة الصفحة ١٠ .

صحاح السنة ، باسم طبيعة تطور الرواية أو غير ذلك ، كما لا يجوز لنا أيضاً أن نقبل منهم إضعاف ثقتنا باستظهار السنة وحفظها مادام قد ثبت تقييد بعض الحديث منذ عهده صلى الله عليه وسلم ، فلا تعارض بين حفظ الحديث وكتابته ، ولا يقتضى وجود أحدهما انعدام الآخر أو ضعفه .

* * *

نتائج هذا الفصل :

(١) دونت أحاديث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عهد الصحابة والتابعين ، ووصلنا بعضها فى المسانيد والصحاح وبعضها مستقلا ، وأشهر تلك الصحف التى دونت فى عهده صلى الله عليه وسلم العهد الذى أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بكتابته بين المسلمين ويهود المدينة ، والصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو ، وبعض صحيفة جابر ، ومن أقدم ما وصلنا من عهد الصحابة صحيفة همام بن منبه عن أبى هريرة التى دونت قطعاً فى العقد السادس من القرن الأول الهجرى .

٢ — تجلى لنا من البحث كثرة الكتب والمصنفات فى أول القرن الهجرى الثانى .

٣ — إذا صحت نسبة (مجموع زيد) إلى الإمام زيد — وهو الراجح — يكون لدينا دليل مادى قوى على ماصنف فى أوائل القرن الهجرى الثانى .

٤ — إن محاولة أمير مصر جمع الحديث فى العقد الثامن من القرن الأول الهجرى دليل على اهتمام ولاة المسلمين بالحديث ، وحرصهم على حفظه ، ومحاولة رسمية من أولى الأمر لجمع السنة قبل الزمن المشهود بربع قرن .

٥ – لم تسلم أبحاث المستشرقين من الخطأ المقصود أو غير المقصود ، ولم يصب (جولد تسيهر) فى تصوره واستنباطه من الأخبار الواردة فى كراهة الكتابة وإباحتها ، حين ظن قيام حزبين متخاصمين ، أهل رأى ، يضعون ما ينفى التدوين ليتمكنوا من الطعن فى بعض الأحاديث ورفضها حسب ميولهم وأهوائهم ، وأهل حديث ، وضعوا مايروق لهم من الأخبار التى تثبت التدوين ليتمكنوا من الاحتجاج ببعض الأحاديث التى تخدم غاياتهم وأهواءهم . فعلماء المسلمين وفقهاؤهم أرفع بكثير مما تصوره (جولد تسيهر) ، وقد نهجوا جميعاً المنهج العلمى الدقيق فى سبيل الحفاظ على الشريعة الإسلامية .

وبعد أن اطلعنا على تاريخ السنة ، منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى منتصف القرن الهجرى الثانى تقريبا ، وعرفنا كيف حفظت وكيف نقلت ورويت جيلا عن جيل ، حتى وصلتنا سالمة خالصة من كل شائبة — أرى من واجبى أن أعرف بمشاهير رواة الحديث من الصحابة والتابعين ، لنطلع على مكانتهم العلمية ، ونعلم قيمة رجال الحديث الذين حافظوا على السنة ، وصانوها عبر الزمان ، ونقلوها إلينا بكل أمانة ، فهم سندنا ، وسبيلنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى سنته الطاهرة ، وهذا ما سأبحثه فى الباب التالى بعون الله .

* * *